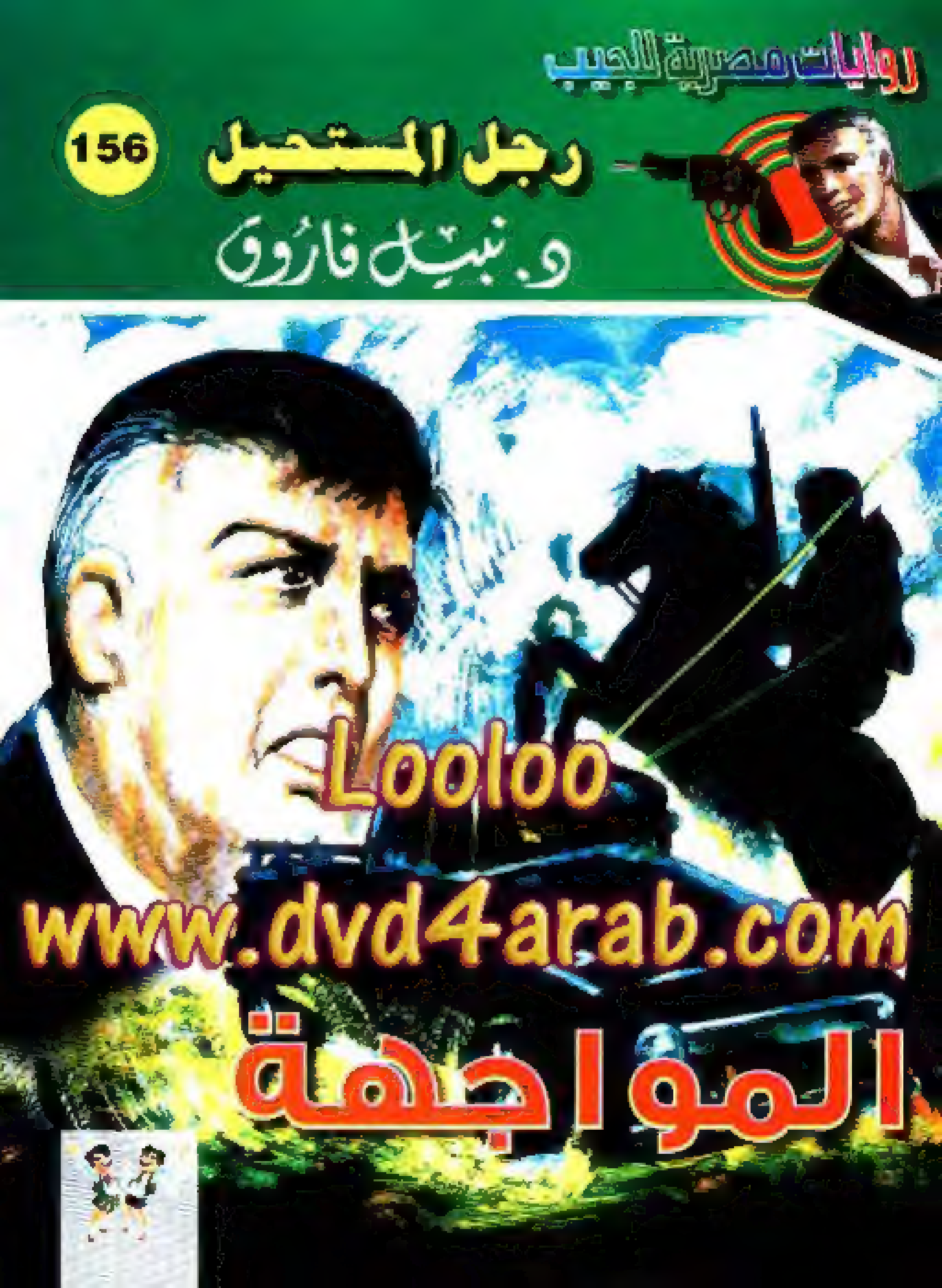


روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
156
د. نبيل فاروق
المواجهة



رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ـ 1) .. حرف (النون) ، يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و (المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة .

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة تلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب «رجل المستحيل» .

د. نبيل فاروق

1ـ تجـاوز ..

صرامة واضحة ، ارتسمت على وجه مدير المخابرات العامة المصرية ، وهو يلف إلى قاعة الاجتماعات فى مبنى الجهاز ، فنهض كل ضباطه ومعاونيه احترامًا عندما اتجه إلـى رأس المائدة ، فأشار إليهم بيده قائلاً :

ـ تفضلوا .. دعونا لا نضيع الوقت ؛ فأنتم تعلمون وتدركون مدى أهمية هذا الاجتماع .

تبادلوا نظرة صامتة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ معذرة يا سيادة الوزير(*) ، ولكن بعضنا يعتقد أنه اجتماع تقليدى ، لمناقشة شئون العمل ، ولن تتضاعف أهميته ؛ لمجرّد أنه يتعلّق بضابط كبير هنا .

تراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وتطلّع إلى وجوههم ونظراتهم ، وأدرك بفطنته وخبراته الطويلة أن توترًا حقيقيًا يسرى فى عدد كبير منهم ، وأنه لابد من التعامل مع الموقف بنفس الروح الديمقراطية والنمط الحازم ، والذى تتسم به أجهزة المخابرات .. ودون أية استثناءات ..

(*) مدير المخابرات العامة فى مصر بدرجة وزير .

لذا ، فقد اعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ بالطبع .. إنه اجتماع دورى ، ولكن لا ينكر أحدكم أننا نناقش فيه مصير واحد من أكفأ ضباطنا .

انبرى أحدهم يقول :

ـ سيدى .. صحيح أن العميد (أدهم) ضابط مخابرات عظيم ، ليس فى جهازنا وحده ، ولكن على مستوى عالمى ، وأن معظم أجهزة المخابرات القوية تعرفه ، وربما تخشاه أيضًا ، ولكن هذا بالضبط وجه اعتراضنا .

بدا الاهتمام على وجه المدير ، وهو يستند إلى المائدة بمرفقيه ، فتابع الرجل ، فى ثقة أكثر :

ـ ففى كل أجهزة المخابرات فى العالم أجمع ، توجد قواعد أساسية ، لا يمكن التنازل عنها ، وأهمها سرية العمل ، و ...

صمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وسرية من يعملون .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ و(ن ـ 1) كسر القاعدة .

اندفع رجل آخر ، يقول فى شىء من الحدة :

ـ بل كل القواعد يا سيادة الوزير .. العميد (أدهم) تجاهل تمامًا كل ما ينبغى أن يلتزم به ضابط مخابرات ، فترك العمل دون إذن رسمى ، ولم يلب نداء الواجب ، ويسلم نفسه لإدارته ، عندما استعاد وعيه ، وأنهى المهمة المسندة إليه ، وإنما قرر وحده ، ودون استشارة أحد ، القيام بمهمة خاصة ، أثار خلالها غضب أقوى دولة فى العالم ، وتحدى سلطاتها وإدارتها ، وشن حربًا منفردة عليها ، وكل هذا ، وهو معروف رسميًا ، بأنه رجل مخابرات مصرى .

قال المدير فى حزم :

ـ من طراز خاص جدًا .

هتف ثالث :

ـ ومتمرد جدًا .

التقى حاجبا المدير ، وبدا له أن إدارته كلها ثائرة على تجاوزات (أدهم) ، فاعتدل فى مقعده ، فى شىء من التأهب ، وراحت الذكريات تتداعى فى ذهنه ، على نحو مدهش وسريع ..

فالواقع أن بعضهم على حق فى غضبه من الناحية الرسمية ..

فمنذ نجح (أدهم) فى إنقاذ (مصر) و(أمريكا) ، والعالم كله ، من طغيان هائل ، فى جزيرة الزعيمة ، لم يعد إلى جهاز المخابرات المصرية قط[*] .

(*) راجع قصة (النهاية) .. المغامرة رقم (150) .

لقد اختفى طويلاً ، وتواترت المعلومات بأنه قد لقى مصرعه ، فى قلب المحيط الأطلنطى ، وأن رفاقه أيضًا قد لقوا المصير نفسه ، وكادت المخابرات العامة المصرية تعتمد هذا رسميًا ، لولا ما حدث بعدها ..

لقد ظهر (أدهم) فجأة ..

فى قلب (العراق)(*) ..

لم يتعرّفه أحد فى البداية ، ولم يحاول هو الإفصاح عن نفسه مرة واحدة ، أو حتى الاتصال بالجهاز ..

ربما لأنه خاض حربًا منفردة ..

وشرسة ..

حرب ضد المحتل الأمريكى فى (العراق) ..

طبيعته المقاتلة ، وجيناته العربية لم تقنع بالصمت والسكون ، وهناك من يحتل أرضًا عربية ..

ويريق للدم العربى ..

ولأنه مصرىّ ..

ولأنه (أدهم صبرى) ، كان لابد من أن يتواجد فى قلب الأحداث ..

(*) راجع قصة (العودة) .. المغامرة رقم (151) ..

فى قلب الحرب ..

وهناك قاتل بكل غضبه وقوته ..

قاتل بمعيار مزدوج مدهش ..

شديد على الأعداء ، رحيم بالأصدقاء ..

وبنبل بلا حدود ..

وفروسية بلا هوادة ..

وروح قيادية خلّاقة ..

وتحت لوائه ، انضم رجال مخابرات آخرون ، دربهم بنفسه يومًا(*) .. وذاق المحتل الأمريكى الأمرين ، من أسود أربعة ..

ثم جاءت مفاجأة أخرى ..

الصينية الحسناء (تيا) ، التابعة الأولى للزعيمة ، عادت فجأة إلى الظهور ، لتعلن أن رفاق (أدهم) مازالوا على قيد الحياة ..

وكانت مفاجأة مثيرة ..

ومدهشة ..

والمدهش أكثر أنه ، فى الوقت نفسه تقريبًا ، كان (أدهم) قد بدأ اتصاله بالمخابرات المصرية ، ليبلغهم أنه على قيد الحياة ، وأنه لايريدهم أن يتورطوا رسميًا ، فى حربه على الأمريكيين ..

(*) ستنشر هذه المهمة قريبًا ـ بإذن الله ـ فى عدد خاص .

ولهذا أخفى أمر نجاته ..

كان الأفضل ، من وجهة نظره ، أن يعتبره العدو ميتًا ..

على الأقل رسميًا ..

ومع معرفته بنجاة رفاقه من الموت ، وبأن الزعيمة الغامضة تحتجزهم فى مكان ما ، لم يعد باستطاعة (أدهم) أن يبقى فى (العراق) ..

كان يتحتم عليه أن يخوض حربًا أخرى ..

حربه الخاصة ..

كان عليه أن يسعى لاستعادة رفاقه ..

وبأى ثمن ..

وترك (أدهم) أسوده الثلاثة فى (العراق) ، وألقى خلف ظهره ثوب الفدائى المناضل ، ليرتدى مرة أخرى ثوبه الأصلى ..

ثوب رجل المخابرات ..

الخاص جدًا ..

وفى نفس الوقت ، الذى كانت الزعيمة الغامضة تقضى فيه على خصمها العنيد اللدود مستر (X) ، وتستعيد سيطرتها على الإدارة الأمريكية ، وتدفع قواتها ومخابراتها لمطاردة (أدهم) والبحث عنه ،

بعد أن تيقنت من أنه مازال على قيد الحياة ، كان هو ينطلق إلى أحراش (كولومبيا) ؛ لمواجهة إمبراطور عصاباتها (بابلو لاماس) ، وتماسيحه القاتلة ، بأمل استعادة رفاقه من قبضته ..

وفى قلب الأحراش ، خاض (أدهم) حربًا رهيبة(*) ..

رجل واحد ، فى مواجهة جيش كامل ، من عصابات (كولومبيا) ..

وفى (واشنطن) ، اضطرت الإدارة الأمريكية ، التى تتغطرس على العالم كله ، إلى الخضوع لمطلب الزعيمة ، وإرسال قواتها الخاصة ، لخوض الحرب ، فى قلب الأحراش ..

وفى (كولومبيا) كانت المواجهة دامية ..

دامية للغاية ..

وعلى الرغم من أنها أسفرت على انتصار (أدهم) ، إلا أن مهمته لم تنجح فى النهاية ..

لقد حطم (لاماس) وعصابته ..

وانتصر فى حربه ..

ولكنه لم يستعد رفاقه ..

(*) راجع قصة (الحرب) .. المغامرة رقم (154) ..

لقد كشف أنهم قد عادوا إلى هناك ..

إلى قلب الولايات المتحدة الأمريكية ..

ولم يكن من الممكن أن يتردَّد (أدهم) لحظة واحدة ..

لقد قرَّر فورًا أن يشن حربًا جديدة ..

حربًا ضد خصم هائل ..

الولايات المتحدة الأمريكية .. كلها ..

أكبر وأقوى دولة في العالم ، في مواجهة رجل واحد ..

رجل سيحارب دولة ؛ ليستعيد رفاقه ..

حبيبته ..

وصديق عمره ..

وتلميذيه ..

من أجلهم قرَّر أن يقاتل بلا هوادة ..

وبلا توقف ..

وهناك ، في قلب العدو ، لم يبدأ هو الحرب ، وإنما بدأتها هي ..

الزعيمة الغامضة ، التي تبدو وكأنها تعرف كل شيء ، أطلقت خلفه كل سلطات الدولة ..

وبدأت أخطر لعبة في الوجود ..

وبين كرٍّ وفرٍّ ، وحيرة وارتباك ، شكَّت الزعيمة في أن (أدهم) قد أزاح بصرهم بعيدًا ؛ ليستعيد رفاقه ، في مناورة بارعة ..

ولأنها لا تثق سوى في تابعتها الصينية الحسناء ، فقد أرسلتها للتيقُّن من أن الأربعة ما زالوا هناك ..

في قبضة (جاكسون) ، زعيم زنوج وعصابات (هارلم) ..

ولكن (جاكسون) كان قد نقلهم بالفعل ، إلى مزرعته الخاصة في (تكساس) ولتتأكد بنفسها ، سافرت (تيا) مع رجالها ورجاله إلى هناك ..

وكان رفاق (أدهم) أسرى بالفعل ، في القبو السري في مزرعته ..

وتحت إسطبلات خيوله ..

ولكن (جاكسون) لم يكن شريفًا معها ..

أو حتى معهم ..

فالأمر كله كان فخًا ..

فخًا سقطت فيه (تيا) ، وحصد (مارلو) مساعد (جاكسون) حراسها كلهم أمام عينيها ، وهي سجينة داخل قفص ثقيل من الصلب ..

لم يكن مدير المخابرات يدرك ذلك الموقف الأخير ، ولكنه كان يعلم ، كما أبلغه (أدهم) ، أن هذا الأخير قد انتحل هيئة مساعد طيار ، في طائرة (جاكسون) الخاصة ، التي تطير إلى مزرعته ، و ...

« سيدي .. »

نطق أحد رجال المخابرات الكلمة في حذر متوتر ، فاعتدل المدير بحركة حادة ، وسرت في جسده انتفاضة غير ملحوظة ، وهو يقول :

ـ أنا معكم .

تبادل الرجال نظرة قلقة ، وغمغم أحدهم :

ـ معذرة يا سيادة الوزير ، ولكنك بدوت لحظة ..

لم يكمل عبارته ، فأكملها الوزير في حزم :

ـ شاردًا .. أليس كذلك ؟!

غمغم الرجل في ارتباك :

ـ معذرة مرة أخرى .

قال المدير ، ومستعيدًا حزمه :

ـ لا ينبغي أن تعتذر يا رجل .. لقد شرد ذهني لحظة بالفعل .

وأدار وجهه في وجوههم ، قبل أن يضيف :

ـ كنت أستعيد بعض الذكريات .

بدا عليهم الاهتمام ، فتابع بكل الحزم :

ـ ذكريات عمليات (ن ـ 1) ، منذ عصر المدير السابق ، وحتى لحظة خروجه في تلك المهمة ، التي شهدت كل هذا .. تذكرت أنه ، وبخلاف أي رجل مخابرات أو عمليات خاصة عرفته ، يملك ملفًا لا يحوي عملية فاشلة واحدة .

قال أحدهم معترضًا :

ـ ولا يحوي كل عملياته أيضًا .

تجاهل المدير التعليق ، وهو يتابع :

ـ تذكرت كم الخدمات ، التي قدمها (ن ـ 1) لهذا الجهاز ، وللدولة ، وربما للعالم كله ، وتذكرت كيف أنه مستعد للمخاطرة بحياته نفسها ، دون ذرة واحدة من التردد ، في سبيل وطنه ، وواجبه ، و ...

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، في حزم أكثر :

ـ وأي شخص في هذه الحجرة ..

سرت همهمة غير واضحة بينهم ، وراح بعضهم يتبادل نظرات عصبية ، قبل أن يقول أحدهم في حزم :

ـ سيادة الوزير .. كلنا نكن خالص التقدير والتوقير للعميد (أدهم) ، وبعضنا من أخلص أصدقائه ، وممن شاركه بعض عملياته ، وكل واحد منا واثق ـ دون أدنى شك ـ من أنه صديق مخلص ، ومواطن

من الدرجة الأولى ، وضابط مخابرات بلا نظير ، إلا أننا نعانى مشكلة أخرى أكثر أهمية وخطورة .

تمتم المدير :

- وهى ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- مشكلة الالتزام ، ومشكلة المثل العليا ، والقدوة الحسنة .. إننا ندرب جيلاً جديدًا ، لتجديد دم الجهاز ، وبعضنا يشارك فى برنامج تأهيل ضباط المخابرات الصغار ، وتواجهنا جميعًا مشكلة كبرى ؛ فكلهم مبهورون بشخصية العميد (أدهم) وتاريخه ، وكلهم يتمنون لو أنهم أصبحوا مثله ، وربما يحاول عدد قليل منهم اكتساب مهاراته ، وعندما يرون أنه يتجاهل كل النظم والقواعد ، ويخوض حروبه الخاصة ، دون حتى الرجوع للجهاز ولرؤسائه ؛ فسيصبح هذا أسوأ مثل وقدوة لهم ، ولن يمكننا السيطرة عليهم بعدها ، أو إقناعهم أن الطاعة هى سر نجاحهم وتفوقهم .

كانوا على حق تمامًا فى موقفهم هذا ، مما جعل المدير يتراجع فى مقعده ، ويدير الأمر فى رأسه بضع لحظات ، ثم يسأل فى اهتمام :

- وماذا تقترحون بشأن (ن - 1) ؟!

تبادل الرجال نظرة صامتة متوترة ، ثم قرر أحدهم مواجهة الموقف ، وهو يجيب فى حزم :

- إحالته إلى الاستيداع .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وأضاف آخر :

- أو وقفه عن العمل ... نهائيًا .

كانوا يناقشون كل هذا ، وهم يجهلون أن (أدهم) يواجه ، فى اللحظة نفسها خطرًا داهمًا ..

فبعد أن تخلص (مارلو) من رجال (تيا) ، استعد وحارساه لإطلاق النار عليها ، وعلى رفاق (أدهم) الأربعة ، داخل ذلك القبو ، فى مزرعة (تكساس) ..

ولكن فجأة ، ظهر هو ..

ظهر (أدهم) كإعصار مدمر ، ليحطم أنفه وأنف حارسيه ، بمنتهى العنف ، عبر غضب مكبوت ، وثورة بلا حدود ..

ثم تحول فى لحظة إلى كتلة من الحنان والحب ، وهو يضم رفاقه وحبيبة عمره ، وقد تيقن كل منهم أن الآخرين على قيد الحياة ..

ولكن بقيت مشكلة خطيرة ..

الخروج من المزرعة .. بسلام ..

ولكن لا تأتى الرياح قط بما تشتهى السفن ..

لقد كشفت الزعيمة اللعبة ، وأطلقت خلفهم رجال المخابرات الأمريكية ، الذين وصلوا إلى مزرعة (جاكسون) ، فى نفس الوقت أعلن فيه أحد رجاله أنه هناك صراع عنيف ، يدور فى القبو السرى ، أسفل الإسطبلات ..

وخلال دقائق قليلة ، كان أكثر من مائة رجل مسلح يحاصرون إسطبلات زعيم عصابات السود ، وكل واحد منهم تحفزت كل حواسه لإطلاق النار ، على أى هدف متحرك ..

وكان هذا يعنى أن (أدهم) ورفاقه قد سقطوا فى مصيدة رهيبة ، لا فكاك منها ..

مصيدة موت(*) ..

(★) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأول (الإرهاب) .. المغامرة رقم (155) ..

2ـ الخروج من الجحيم ..

على الرغم من توتر الموقف ، فقد شعر (جاكسون) بنشوة عجيبة ، وهو يتابع ما يحدث فى مزرعته ..

وحول إسطبلات خيوله ..

فرعاة أبقاره البيض ، كانوا يحيطون بالمكان ، إحاطة السوار بالمعصم ، وكل منهم متحفز بمسدسه ، على صهوة جواده ، ويسعى لنيل رضا سيِّده ، الذى اعتاد توزيع المكافآت بسخاء ..

ولأول مرة فى حياته ، وعلى نحو لم يتخيله من قبل ، كان رجال المخابرات المركزية يقفون جنبًا إلى جنب ، مع رعاة أبقاره ..

وفى صرامة ، سأله كبيرهم (جاك لوريل) :

ـ هل يوجد مخرج آخر لهذه الإسطبلات ؟!

أجابه (جاكسون) فى شىء من الزهو :

ـ كل شىء فى حياتى له مخرج آخر .

التفت إليه (جاك) بحركة حادة ، فأشار بسبَّابته ، مستطردًا :

ـ ورجالى يحاصرونه أيضًا .

أشار (جاك) بيده فى صرامة ، فتحرك اثنـان مـن رجالـه فـى خفة وسرعة ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ أين المدخل الآخر ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ فى الخلف ، ولكن اطمئن ، فرجالى ...

قبل أن يتم عبارته ، كان رجلا المخابرات الأمريكية قـد اندفعا إلى خلف الإسطبلات ، و(جاك) يلوّح بمسدسه ، قائلاً :

ـ لايدهشك أننا لانثق بك ، ففى عالمنا ، علمونا ألا نثق إلا فـى رؤسائنا فحسب .

هزّ (جاكسون) كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا ينطبق على عالمى أيضًا .

تجاهله (جاك) تمامًا هذه المرة ، وهو يمد يده إلى أحد رجالـه ، فناوله مكبرًا صوتيًا إليكترونيًا ، رفعه إلى فمه ، وقـال عبره فـى صرامة :

ـ سيّد (أدهم) .. معلوماتنا تؤكد أنك فى الداخل .. لانريد أن نحوّل الأمر إلى مذبحة .. أعلم أنك مقاتل عنيد صنديد ، ولكـن هذا لن يفيد هنا .. الكثرة حتمًا تغلب الشجاعة .. هذا ماتعلمناه .

غمغم (جاكسون) :

ـ هذا صحيح .

مرة أخرى ، تجاهله (جاك) تمامًا ، وهو يواصل :

ـ سنمنحك ورفاقك خمس دقائق فقط ، ثم ...

« يا للسخافة ! »

قاطعه (جاكسون) بالعبارة ، التى حملت كمًا هائلاً من السخرية والازدراء ، فالتفت إليه (جاك) فى حدة ، هاتفًا :

ـ إياك أن تدس أنفك فى شئوننا أو أساليبنا .

قال (جاكسون) فى مزيد من الازدراء :

ـ أية أساليب ؟! لدى هنا نساء يتصرّفن برجولة وخشونة أكثر منكم .. أية سخافة هذه ؟! أتمنحونهم مهلة لحشد قوتهم وأفكارهم ؟! لو أننى أتولى الأمر ، لهاجمت على الفور .

قال (جاك) فى صرامة :

ـ لأنك أحمق متهوّر ، لاتدرك أن أهميتهم أحياء ، تفوق ألف مرة أهمية موتهم .

قال (جاكسون) فى سخرية :

ـ وهل تتصورّ أنهم سيستسلمون ؟! هراء .. ربما تكونون رجال مخابرات قدامى ، ولكن خبرتى فى هذا المضمار ستفوق خبراتكم مجتمعة ألف مرة .. لقد احتفظت بهؤلاء الذين تسعون خلفهم ، والزعيمة تقول : إن ذلك المصرى الذى يثير جنونكم هو زعيمهم ، ووفقًا لخبراتى سيفضلون جميعهم الموت على الاستسلام .

كان يبدو شديد الثقة ، حتى أن (جاك) شعر بالقلق والتوتر ، على الرغم من خشونة لهجته ، وهو يسأله :

ـ وماذا كنت لتفعل ، لو أنك فى موضعنا ؟!

تألقت عينا (جاكسون) فى ظفر ، ومال نحو رجل المخابرات الأمريكى ، وهو يقول بلهجة وحشية :

ـ أهاجم فورًا .

قال (جاك) فى حدة :

ـ وماذا عن استعدادهم للموت ، بدلاً من الاستسلام ؟!

غمز (جاكسون) بعينه ، قائلاً :

ـ ربما لأنهم يجهلون أنه حتى القبو ، له مدخل آخر .

قال (جاك) فى انفعال :

ـ تقصد مخرجًا آخر .

هزّ (جاكسون) رأسه نفيًا ، وقال بابتسامة عريضة ، زادت من بروز شفتيه الغليظتين :

ـ بل مدخل .. مدخل سرى ، يسمح بالدخول ، ولا يسمح قط بالخروج .

وعاد يغمز بعينه مرة أخرى ، مضيفًا :

ـ وهذا يعنى أقوى عامل فى اللعبة .. عامل المفاجأة .

ولم ينبس (جاك) ببنت شفة ..

لقد ارتسمت فى رأسه خطة ..

خطة للإيقاع بـ (أدهم) ورفاقه ..

وبضربة واحدة ..

* * *

لم يستطع مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، ولو لحظة واحدة ، توقُّع سبب استدعائه العاجل إلى المكتب البيضاوى ، مقر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فعلى الرغم من وجود عشرات المشكلات ، التى تواجهها تلك الإدارة ، فى (العراق) و (أفغانستان) ، ومن توتر الموقف فى (سوريا) و (إيران) ، وعنف الصراع بين العرب والإسرائيليين ، فى منطقة الشرق الأوسط ، ومما يصرّ عليه حزب الله فى (لبنان) ، لم يكن هناك أى أمر عاجل أو خطير ، يحتّم هذا الاستدعاء ، والسرية التى أحاطت به ..

لذا ، فقد وصل الرجل إلى البيت الأبيض ، وهو يضرب أخماسـًا في أسداس ، ويرسم في ذهنه عشرات الاحتمالات ..

وما أن دخل مكتب الرئيس ، ووجد وزيرة الخارجية ، ووزير الدفاع هناك ، حتى انعقد حاجباه ، وغمغم في عصبية :

- الزعيمة مرة أخرى ؟!

أشار الرئيس بيده ، مجيبًا في عصبية :

- بل (مصر) هذه المرة .

تساءل مدير المخابرات ، في دهشة حذرة :

- ماذا عنها ؟!

أجابه وزير الدفاع في حدة :

- يريدون رجلهم .

لم يستوعب الرجل الجواب للوهلة الأولى ، فغمغم :

- ماذا ؟!

أجابته وزيرة الخارجية ، وقد بدت شرسة غاضبة كعادتها :

- يريدون رجـل المخـابرات المصرى .. ويطالبون به رسميًا .. أرأيت الوقاحة ؟!

أشار الرئيس بيده ، قائلاً بتوتره المعهود :

- يقولون إنه عندما اختفى كان يقوم بمهمة من أجلنا نحن ، وهذا يجعلنا مسئولين عن سلامته .. رسميًا .

منعت الدهشة مدير المخابرات الأمريكية من التعليق لحظـات ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه في قوة ، قائلاً :

- رجلهم كان في مهمة رسمية ، ولقد أبلغناهم رسميًا بموته .

هزّ وزير الدفاع رأسه بدوره ، وعدّل منظاره على أنفه ، وهو يقول في حدة :

- بوسيلة ما ، تيقنوا من أنه حي ، وطلبوا تأكيدًا لموته ، وعندما أرسلنا إليهم عينـة الحمض النووى ، التى عثرنا عليها ، والتى تطابقت مع المسجّل لدينا ، أخبرونا أنها لاتخص (أدهم صبرى) .

هتف مدير المخابرات :

- مستحيل ! عينة حمضه النووى محفوظة بأمان ، في ...

قاطعته وزيرة الخارجية محتدة :

- خطأ .. سأقتبس من المصريين قولهم : لو كنت تدرى فتلك مصيبة ، وإن كنت لاتدرى ، فالمصيبة أعظم .. لقد تحرينا الأمـر بأنفسنا ، وأثبتنا أنه تم العبث بسجلات الحمض النووى عدة مرات .

اتسعت عيناه في استنكار ، وهو يغمغم :

- ولكنها كلها تحت أقصى قدر ، من التأمين والسرية ، و ...

قاطعته مرة أخرى ، فى حدة أكثر :

- راجعوا إجراءات التأمين والسرية إذن ، فالاختراق قد حدث ، وتم استبدال عدة سجلات للحمض النووى ، مما يعنى أنه هناك عدد من الأشخاص ، أصبحت هويتهم مجهولة تمامًا ، بالنسبة لنا ، على الرغم من خطورتهم البالغة ، على الأمن القومى الأمريكى .

أضاف الرئيس فى غضب :

- وهذا يعدّ قصورًا ، فى عمل المخابرات .

صمت مدير المخابرات الأمريكية لحظة ، ثم قال فى صرامة :

- إنه كذلك بالتأكيد ، ولكنه قصور لا شأن لى به .

هتفت وزيرة الخارجية مستنكرة :

- لا شأن لك ؟!

أجابها فى صرامة :

- بالتأكيد ، فكل هذا حدث ، فى عهد المدير السابق ، و ...

صمت لحظة ، أدار خلالها عينيه فى وجوههم ، قبل أن يضيف :

- والإدارة الحالية .

احتقنت وجوههم فى غضب ، وقال الرئيس فى عصبية :

- هل تحاول إلقاء المسئولية على كاهلنا ؟!

هزّ الرجل كتفيه ، وأجاب فى صرامة :

- ولماذا أفعل ؟! أى تحقيق بسيط سيثبت أن ثلاثتكم متورطون فى المسئولية حتى النخاع .

صاح الرئيس غاضبًا :

- أنسيت أنك تقف أمام الرئيس ؟!

أجابه فى حدة :

- لا .. لم أنس يا فخامة الرئيس . لم أنس كيف تخلصتم من مدير المخابرات السابق ، وألقيتم عليه تبعة نزعتكم الاستعمارية فى (العراق) .. لم أنس كيف عقدت هذه الإدارة صفقات غير قانونية أو معلنة ، مع كبار زعماء الإجرام والإرهاب فى العالم ، بحجة محاربة الإرهابيين ، ولا كيف دعمت حكومات ديكتاتورية ، وهى تدرك طغيانها وظلمها ؛ لمجرّد أنها تدين بالولاء الزائف لنا .. لم أنس أمورًا ، تفضلون جميعكم أن أنساها .

امتقع وجه الرئيس ، وانكمش فى مقعده الكبير ، وبدت صورته متناقضة تمامًا مع كونه رئيس أكبر دولة فى العالم ، فى حين تراجع وزير الدفاع خطوة ، وتحرك فى عصبية شديدة ، وعدّل منظاره

بحركة حادة ، أما وزيرة الخارجية ، فاحتقن وجهها فى غضب ، وقالت فى ثورة :

ـ أتحاول تهديدنا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ بل أتقمّص شخصيتك الساحرة .

تراجعت بدورها مصدومة ، فى حين قال الرئيس ، بصوت بدا متخاذلاً :

ـ بمَ سنجيب المصريين ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وأجاب فى صوت قوى :

ـ سنخبرهم أننا نجهل أين هو (أدهم صبرى) بالضبط .

أجابه وزير الدفاع ، وقد قلب شفتيه ، وبدا أشبه بصورة هزلية ، فى منتصف الستينيات :

ـ إنهم يعرفون أين هو .

استدار إليه مدير المخابرات فى شك ، فتابع فى عصبية :

ـ لسنا ندرى كيف عرفوا ، ولكنهم يعرفون أنه هناك .

وأشار بيده إلى نقطة على تلك الخريطة ، فى جانب الجدار ، مستطردًا :

ـ فى (تكساس) ..

وتضاعفت دهشة مدير المخابرات الأمريكية ..

تضاعفت ألف مرة ..

* * *

بمنتهى العنف ، اقتحم رجال المخابرات الأمريكية ، مع رعاة أبقار مزرعة (جاكسون) ، ذلك القبو السرى ، أسفل الإسطبلات ..

كانوا قد تسللوا عبر ممر خفى ، حتى بلغوا الجانب الأيسر من القبو ، حيث يختفى المدخل السرى ، خلف كومة من التبن ، دفعوها فى عنف ، وهم يثبون داخل المكان ، ويشهرون مدافعهم الآلية ومسدساتهم ..

وعلى الرغم من أن رجل المخابرات الأمريكى قد شدد كثيرًا ، على حتمية عدم إطلاق النيران مباشرة ، لم يكد رعاة الأبقار يجدون أنفسهم داخل القبو ، حتى راحوا يطلقون النار على كل ما يتحرك فيه ..

ودوت الرصاصات ..

وتفجّرت الدماء ..

وتعالت الصرخات ..

ووسط كل هذا ، صاح رجل المخابرات الأمريكى فى غضب :

ـ كفى .. كفى ..

ولكن رعاة الأبقار كانوا ينفذون تعليمات زعيمهم وحده ..

وزعيمهم أمرهم خفية بأن يطلقوا النار على الأسرى الأربعة ، وعلى (أدهم) ، لو وجدوه معهم ..

وحتى ينفى ويتفادى كل الاحتمالات ، طلب منهم أن يطلقوا النار على كل ما يتحرك ، ومن يتحرك ..

بلا استثناء ..

وهكذا ضاعت صيحات (جاك) فى الهواء ، حتى تيقَّن رعاة الأبقار من تنفيذ أوامر زعيمهم ، ثم توقَّفت رصاصاتهم ..

وانعقد حاجبا (جاك) فى شدة ، فى نفس الوقت الذى اتسعت فيه عينا (جاكسون) ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! إنهما حارسا القبو و(مارلو) .. لقد قتلتم رجالى .

وصاح (جاك) ، وهو يتلفَّت حوله فى عصبية :

ـ أين المصريين ؟!

تلفَّت (جاكسون) حوله بدوره ، قبل أن يهتف بمنتهى الدهشة :

ـ لست أدرى ! القبو له مخرج واحد ، وكنا نحاصره ، ولم يخرج منه أحد .

قال (جاك) فى حدة :

ـ لقد خرجوا قبل أن نصل إليه .

هتف (جاكسون) :

ـ مستحيل ! لو فعلوا لرآهم أحد رجالى .. لايمكنك أن تخفى أربعة أسرى منهكين ، ورجلاً غريبًا قويًا ، فى مكان كهذا ، إلا إذا ...

انعقد حاجبا (جاك) ، وهو يقاطعه ، قائلاً :

ـ إلا إذا أبعد الأنظار عنهم .

لوَّح (جاكسون) بذراعيه ، هاتفًا :

ـ وكيف يمكن فعل هذا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (جاك) ، وبدا وكأنه يعتصر مخه فى عنف ، قبل أن تتألق عيناه ، ويهتف :

ـ هل تعرف كل رجالك ؟!

اندهش (جاكسون) للسؤال ، وغمغم متوترًا :

ـ معظمهم .

أمسك (جاك) سترته فى عنف ، وهتف :

- وذلك الذى أتى يخبرنا ما حدث فى الإسطبل .. أهو أحد من تعرفهم ؟!

تردد (جاكسون) لحظة ، قبل أن يجيب فى حذر وتردد :

- ربما كان حديث العهد ، أو ...

دفعه (جاك) في عنف غاضب ، وصاح عبر جهاز الاتصال اللاسلكى الذى يحمله معه :

- الطائرة .. أوقفوا طائرة (جاكسون) .. امنعوها مـن الإقلاع بأى ثمن .

اتسعت عينا (جاكسون) ، وراح يعدو إلى جوار (جاك) ، الذى اندفع نحو أحد سياراته ، وهتف به منزعجًا :

- وما شأن طائرتى بهذا ؟!

صاح به (جاك) :

- ألم تفهم أيها الغبى ؟! ذلك الذى هـرع إلينـا ، وجعلنـا نندفـع كالأبقار العطشى إلى إسطبلاتك ، لم يكن قط أحد رجالك .. إنه هو .

اتسعت عينا (جاكسون) أكثر ، وهو يهتف :

- هـو ؟!

صاح (جاك) ، وهو يقفز داخل إحدى سياراته :

- إنه (أدهم صبرى) ..

وانطلق مع رجاله ، تاركًا زعيم السود فاغر الفاه ، وقد شمله الذهول ، من قمة شعره الأكرت ، حتى أخمص قدميه القذرتين ..

ذهول عارم ..

بلا حدود ..

على الإطلاق ..

* * *

« ما زلت كعهدى بك يا صديقى .. »

هتف (قدرى) بالعبارة ، بأقصى قـدر مـن المرح ، تسمح به حالته ، وازدرد ما أمكنه من لعابه ، عبر حلق جاف كـالصحراء ، قبل أن يتابع :

- جذب انتباههم إلى الإسطبلات ، لنشق نحن طريقنا إلى طائرتهم ، لعبة شديدة البراعة .

همست (منى) في حب :

- وهل يدهشك هذا ؟!

قهقه على نحو عجيب ، مع صوته المبحوح ووجهه الشاحب ، وهو يجيب :

- مطلقًا .

لم يتابع (أدهم) حديثهما باهتمام، وهو يراقب الطائرة فى اهتمام، قبل أن يقول فى حزم :

ـ من الواضح أن (جاكسون) هذا ليس حقيرًا فحسب، ولكنه غبى تافه أيضًا . فوجود الطائرة داخل حدود مزرعته، أفقده الحذر، فتركها دون حراسة .

غمغم (شريف) :

ـ لا يمكن أن يتوقّع ما سنفعله .

أجابه (أدهم) بنفس الحزم :

ـ كان ينبغى أن يفعل .

ثم أشار إليهم، فلكز كل منهم جواده، وخرجوا من خلف الصخرة الضخمة، التى تحجبهم عن الأنظار، وانطلقوا نحو الطائرة .

وفى قلق، غمغمت (منى) :

ـ ماذا لو أن الطيار والمضيفة أدركا ماهيتنا ؟!

أجابها (أدهم)، وهو ينطلق بجواده :

ـ لن يفعلا .. من المؤكّد أنهما قد ألفا رؤية رعاة الأبقار، وسيتصورون أننا بعضهم .

كان على حق فى افتراضه هذا، فالطيار والمضيفة وقفا هادئين بالفعل، يتابعان اقتراب (أدهم) ورفاقه على خيولهم، حتى لم يعد يفصلهم عن الطائرة إلا ثلاثمائة متر، فى منطقة هبوط عارية منبسطة، و ...

وفجأة، ظهرت تلك السيارات الثلاث ..

ثلاث سيارات سوداء قوية، انطلقت نحو الطائرة، لتقطع الطريق عليهم، فى سرعة وعنف ..

وكان من الواضح أن (أدهم) ورفاقه لن يمكنهم بلوغ الطائرة قط، قبل تلك السيارات القوية ..

أما الطيار والمضيفة، فقد أدركا أنه هناك خلل ما، فأسرعا إلى الطائرة، وحاولت المضيفة إغلاق بابها ..

وأدرك الكل أن الموقف قد أصبح دقيقًا وعسيرًا ..

إلى أقصى حد ..

وبسرعة مذهلة، ودون أن يتوقّف لحظة واحدة، أدار (أدهم) الموقف كله فى رأسه، ثم هتف فى حزم صارم :

ـ لا تسمحوا للطائرة بالإقلاع ..

قالها ، وانفصـل عن المجموعة ، وهو ينطلق بجواده نحو السيارات الثلاث ، فهتفت (منى) منزعجة :

ـ رباه ! ماذا تفعل ؟!

قاطعها فى صرامة شديدة :

ـ هذا أمر .

وهكذا بدأت المواجهة ..

مواجهة بين طائرة ..

وأربعة أسرى منهكين ..

وثلاث سيارات قوية ، محمّلة برجال مخابرات أمريكية أشداء مسلحين ..

ورجل واحد ..

رجل أعزل ..

تمامًا .

* * *

3ـ رجل .. ورجال ..

شعر مدير المخـابرات الأمريكية بحنق شديد ، وهو ينتقل من سيارته إلى سيارة الزعيمة الفاخرة ، وقـال فى حدة ، فـور استقراره داخلها :

ـ أمن الضرورى أن نلتقى دومًا بأسلوب العصابات هذا ؟!

أشعلت سيجارتها الرفيعة فى هدوء ، ونفثت دخانها فى قوة ، قبل أن تجيب فى برود :

ـ هذا أفضل .

كاد يدخل معها فى نقاش حاد ، لولا أن تابعت فى صرامة :

ـ ماذا يريد المصريون ؟!

انعقد حاجباه ، والتوتر يسرى فى جسده كله ، وقال فى عصبية :

ـ كيف عرفت هذا ؟!

سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، وقالت فى حزم :

ـ لم تجب سؤالى .

قال فى حدة :

ـ ولم أحصل على جواب منك أيضًا .

التفتت إليه في بطء ، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه ، وهي تقول :

ـ هل تنتظر جونيًا حقًّا ؟!

صمت لحظات ، شعر خلالها بكل توتر الدنيا يسري في عروقه ، قبل أن يقول محتدًا :

ـ كانوا يريدون رجلهم .

التقى حاجباها ، وهي تغمغم :

ـ إذن فقد قرروا دخول الساحة رسميًا .

أومأ برأسه ، قائلاً :

ـ لقد فعلوا .

راحت تفكر بضع لحظات في عمق شديد ، وهي تنفث دخان سيجارتها ، داخل السيارة المغلقة ، حتى هتف بها مدير المخابرات الأمريكية في حدة :

ـ لو أنك تصرين على اللقاء في سيارتك ، فتوقفي عن حشو رئتي بالدخان .

قالت في صرامة :

ـ سيارتي هي المكان الوحيد ، الذي أثق في أنه ليس عرضة لأجهزة التنصت .

ثم عقدت حاجبيها ، وهي تضيف في خشونة لا تليق بمثلها :

ـ إنكم تراقبون الجميع .. أليس كذلك ؟!

قال في عصبية :

ـ الأمن القومي يحتِّم ..

قاطعته بضحكة عالية مبتذلة ، احتقن لها وجهه بشدة وغضب ، قبل أن تقول ، في لهجة حملت من السخرية ، ضعف ما حملته من الجدية والصرامة :

ـ أي أمن ؟! أتتصور أنك ستخدعني بتلك الكلمات الرنانة ، التي تغيبون بها وعي شعبكم ، والشعوب المتضامنة معكم ؟!... هل اعتقدت لحظة ، أنني أجهل السبب الحقيقي لما تفعلونه وتدبرونه ؟!

قال في عصبية :

ـ وما الذي تدبره ؟!

تراجعت في سخرية أكثر ، مجيبة :

ـ الحلم القديم يا رجل .. الأمل ، الذي عاش ومات من أجله آلاف القادة والزعماء .. الملوك والأباطرة .. حلم التفوق والقوة .

ثم مالت نحوه بشدة ، وهمست بصوت كالفحيح :

- حلم السيطرة على العالم .. كله ..

صمت طويلاً ، وكأنما يقرُّ بما قالته ، ثم لم يلبث أن قال :

- أنت أيضًا حاولت هذا .

هزّت كتفيها بلا مبالاة ، وهي تجيب :

- ومازلت أحـاول ، على الرغم من ثقتي في حماقة الفكـرة وعبثيتها ، ومن أن التاريخ يؤكد أن أحـدًا لم يفعلها ، ولكنـه كما أخبرتك .. حلم .. حلم لايمكنك أن تخرجه من رأسـك أبـدًا ، ما دمت تملك القوة لتحقيقه ، أو حتى تتصوّر هذا .

لم يشأ مناقشة منطقها ، فقال في صرامة :

- فيم لقاؤنا إذن ؟!

أجابته في سرعة ، وهي تلقي سيجارتها على أرضية السيارة الفاخرة ، وتسحقها بقدمها سحقًا :

- أنا أيضًا أريده .

خُيّل إليه أنه لم يفهم السؤال ، أو لم يستوعبه جيدًا ، فقال في حذر :

- تريدين من ؟!

أجابته بكل صرامة :

- (أدهم) .. (أدهم صبري) .

حدّق في وجهها في دهشة ، قبل أن يسألها مستنكرًا :

- ماذا يعني هذا ؟!

أجابته بمنتهى الصرامة ، وهي تشعل سيجارة جديدة :

- إنه لي وليس لكم .

هتف في حدة :

- تتحدثين كما لو كنا نقتسم غنيمة ما .

إجابتها صدمته في عنف :

- أليس الأمر كذلك ؟!

ظلّ جامدًا لحظة ، ثم تراجع في مقعده ، وقال :

- كلانا يعلم أين هو الآن .

أجابته في حزم :

- ولكن رجالك وحدهم يسعون خلفه .

سألها فجأة :

- وماذا عن (جاكسون) ورجاله .

مطّت شفتيها ، قائلة :

- (جاكسون) وقروده مجرد مهرجين ، يرتدون ثياب رعاة الأبقـار ، ويقاتلون بأسلوب قطاع الطرق ومشاغبى الشوارع ، أما رجالك ، فمهما كانت تحفظاتى بشأنهم ، فهم رجال مخابرات .

زمجر قائلاً :

- رجالى أفضـل مقاتلين فى العالم ، ولا أحد يمكنه هزيمتهم .

نفثت دخـان سيجارتها فى بطء ، مع ابتسامة ساخرة مستفزة ، قبل أن تقول :

- سنرى .

شعر بالحنق لحديثهما الطويل ، فقال فى حدة صارمة :

- ماذا تريدين بشأن ذلك المصرى بالضبط ؟!

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وقالت :

- إذا ما نجح رجالك فى اقتناصه .

ضغطت عمدًا كلمة (إذا) ، على نحو أثار حنقه بشدة ، ولكنهـا تابعت ، دون حتى أن تبالى بهذا :

- فستُبلِّغ إدارتك بموته رسميًا ، وستبلِّغ المصريين بالأمر نفسه .

قال فى حدة :

- وماذا لو طالبوا بجثته ؟!

تألّقت عيناها ، وهى تقول :

- لن تكون هناك جثة .

هتف :

- وكيف ؟!

التقطت نفسًا طويلاً من سيجارتها ، وراحت تنفثه بمنتهى البطء ، ثم أجابت فى صرامة :

- لأن (أدهم صبرى) سيلقى مصرعه رسميًا ، داخل طائرة احترقت ، بعد انفجار رهيب .

وتراقصت ابتسامة على شفتيها ، وهى تتمتم :

- طائرة (جاكسون) .

قالتها ، وعيناها تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

مهما بلغت فصاحتنا ، لايمكننا أن نصف ذلك المشهد إلا بأنه مذهل ..

ومدهش ..

وفريد ..

حتى رجال المخابرات الأمريكية ، الذين اعتادوا مواجهة أعتى وأغرب المواقف ، وأكثرها صعوبة وندرة ، فغروا أفواههم دهشـة ، إزاء مايرونه ..

كانوا يقطعون تلك الساحة المنبسطة ، فى مطار (جاكسون) ، بثلاث سيارات مصفحة قوية ، فى حين تحاول طائرة زعيم السـود الفرار من المكان ، وخلفها أربعة جياد تطاردها ..

وفى مواجهتهم هم ، كان هناك فارس واحـد على جواد أبيض ، ينقض فى بسالة مدهشة ، وكأنما ولد بـلا قلب ، أو أن أعماقه لاتدرى ما الذى تعنيه كلمة (الخوف) ..

ولوهلة ، توقفوا جميعًا عن إطلاق رصاصاتهم ، على نحو غريزى مبهور ، لولا أن هتف بهم قائدهم (جاك لوريل) ، ضابط المخابرات المحنك :

ـ ماذا تنتظرون .. امنعوهم من الفرار بأى ثمن .

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، كانوا قد بدءوا إطلاق النار بالفعل ، فهتف مستطردًا فى حدة :

ـ أريدهم أحياءً .

كان هذا الأمر الأخير معوقًا تمامًا لرجاله ؛ إذ أصبح عليهم أن يواصلوا إطلاق النار ، ويحاولوا منع (أدهم) ورفاقه من الفرار ، على ألا يقتلوا أحدًا منهم قط ..

ولكن الأمر نفسه لم يكن يمنع إصابتهم ..

إلى أقصى مدىً ..

وبتكنيك احترافى مدروس ، انقسمت السيارات الثلاث ، فى ثلاثة اتجاهات مختلفة ..

كان جسد (قدرى) يرتج فى قوة ، على متن جواده ، وهو يحاول اللحاق بـ (منى) ، التى انطلقت على صهوة جوادها ، على الرغم من تهالكها وآلامها ، محاولة اللحاق بالطائرة ، التى مازالت تنطلق على ممر الإقلاع ، وإطاراتها لم ترتفع لتنطوى داخلها بعد ..

وبمنتهى العنف ، راح (قدرى) يلهث ، ويلهث ، ويلهث ، ولاحظ من طرف عينيه تلك السيارة السوداء القوية ، التى تقترب منه فى سرعة ، وسمع أزيز رصاصات ركابها ، وهى تعبر إلى جوار أذنه ، فلكز جواده بقوة أكثر ، وهو يصيح به :

ـ رباه ! أسرع أيها الجواد .. أسرع .. هؤلاء الأوغاد سيلحقون بنا ، وسيسلخوننى حيًّا بالتأكيد ، لو وقعت فى قبضتهم .. أسرع أيها الجواد .. ألا تفهم العربية ؟!

على الرغم من كل محاولاته ، بدا له أن (منى) تبتعد بجوادها كثيرًا عنه ، فى حين أن السيارة السوداء تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

فى الوقت نفسه ، كان (شريف) و(ريهام) ينطلقان بجواديهمـا بأقصى سرعتيهما ، بمحاذاة الجانب الآخر من الطائرة ، و(ريهام) تهتف :

ـ سأحاول التعلّق بالجناح .

هتف (شريف) :

ـ الجناح ؟! هل جننت ؟!

لم يكن حتى قد أنهى عبارته ، عندما تخلت هى عن جوادها ، ووثبت تتعلق بالجناح بالفعل ..

ولكن الأمر لم يكن بسيطًا أو هينًا ..

بل ، ولم يكن حتى ممكنًا ..

لقد وثبت فى رشاقة ، وبتوقيت مدهش ، وبلغت الجناح بزاوية رائعة ومثالية ، و ...

ولم تجد ما تتشبث به ..

كان كل ما ترجوه ، هو أن تمسك زاوية الجناح ، وتتعلق بها ..

ولكن الجناح كان منحنيًا أكثر مما توقعت ..

وزلقًا للغاية أيضًا ..

لذا فقد تشبثت به لحظة واحدة ، ثم أفلتت يدها بعدها ..

وبمنتهى العنف ، سقطت (ريهام) أرضًا ، وجـذب (شـريف) عنان جواده فى قوة ، فى محاولة لالتقاطها ..

وعلى الرغم من آلام السقطة ، هبّت هى واقفة ، وحاولت اللحاق به ، لولا أن مرقت سيارة سوداء كبيرة إلى جوارها ، ثم انحرفت بحركة حادة ؛ لتسد الطريق بينها وبينه ..

وفى لحظة واحدة ، وثب رجال المخابرات الأمريكيـة من سيارتهم ، وأحاطوا بها ، وصوبوا فوهات مسدساتهم إلى رأسها ، وبعضهم يصوب سلاحه نحو (شريف) الذى جذب عنان جواده فى قوة ، و ...

وأطلق أحد الأمريكيين رصاصة ..

وسقط جواد (شريف) صريعًا ..

فى نفس اللحظة ، كانت السيارة الثانية قد تجـاوزت (قدرى) ، دون أن تتوقف عنده وكأنما يدرك ركابها أنه أقل الأربعة خطرًا ، وتواصل مطاردتها لـ (منى) ..

أما الطائرة ، فقد ابتعدت بسرعة أكبر ، وبدأت ترتفع عن سطح الأرض بالفعل ..

وبكل استطاعتها ، وعلى الرغم من السيارة القوية التى تطاردها ، راحت (منى) تستحث جوادها على الإسراع ، وهى تلهث فى عنف ..

ولكن الطائرة ارتفعت ..

وارتفعت ..

وارتفعت ..

وأصبح اللحاق بها مستحيلاً ..

وفي الوقت نفسه ، كانت السيارة المصفحة القوية تقترب في سرعة كبيرة ، ثم تعترض طريق (منى) ، التي جذبت عنان جوادها ، وحاولت الفرار به ، لولا أن انهالت عليه رصاصات الرجال ، فسقط بها صريعًا ..

وسط الأمريكيين ..

ولم يكن الإيقاع بـ (قدرى) بعدها عسيرًا ..

كل هذا لم يشهده ، أو حتى يدرى به ركاب السيارة الأساسية ، التي يستقلها (جاك) ، والتي كانت تواجه الفرد الأكثر خطورة من الفريق ..

(أدهم) .. (أدهم صبرى) ..

ففي عيونهم ، لم يروا سواه ..

فارس عربي ، على صهوة جواد قوى ، ينقض على سيارة مصفحة قوية ، تحمل خمسة محترفين مسلحين ، في بسالة مدهشة ، وبجرأة بلا حدود ..

كانت السيارة تندفع نحوه ، وهو ينطلق بجواده نحوها ، دون أن يبالي بقوتها ، أو حتى بالرصاصات التي تتناثر من حوله ، والجواد نفسه يطيعه طاعة عمياء ، وكأنما أدرك أن من يمتطيه فارس نادر ، لم يشهد مثله من قبل ..

ومن بعيد ، شاهد رعاة أبقار (جاكسون) المشهد ، فتهف أحدهم مستنكرًا :

ـ ماذا يفعل هذا المجنون .. هل يتحدى سيارة بجواد ؟!

لم يكد يتم عبارته الاستنكارية ، حتى جذب (أدهم) عنان جواده ، واعتصر بطنه بفخذيه ، و ...

ووثب ..

لم يكن الجواد متميزًا ، أو من سلالة نادرة ، إلا أنه استجاب لفارسه على نحو مدهش للغاية ، ووثب وثبة مدهشة ، في نفس اللحظة التي انقضت فيها السيارة القوية .

وأمام العيون الذاهلة ، بدا وكأن الجواد قد استعار جناحين وهميين ، وطار فوق السيارة ، ليهبط على قائمتيه الأماميتين خلفها ..

وفي ذهول ، هتف (جاك) :

ـ مستحيل !

ثم صرخ فى رجاله :

ـ اقتلوا ذلك الجواد .. أفرغوا كل رصاصاتكم فيه .

ولكن الهتاف والصرخة استغرقا وقتًا ، قد يبدو قصيرًا للغاية ، فى لحظة الغضب والانفعال ..

أما بالنسبة لـ (أدهم) ، فقد كان يكفيه ..

ويزيد ..

فمع وثبة (أدهم) ، تجمّد رجال المخابرات لحظة فى ذهول ، استعادوا بعدها سيطرتهم على مشاعرهم ، وأدار سائق السيارة مقودها ، و ...

ولكن الأوان كان قد فات ..

فالواقع أن جواد (أدهم) قد وثب ، وبعده وثب (أدهم) نفسه ..

وفى تلك اللحظة ، التى استغرقها ذهولهم ، كان هو يستقر على سطح سيارتهم بالفعل ، وفى اللحظة التالية ، كان يثب عبر نوافذ العربة المصفحة القوية ، إلى داخلها ..

بعدها ، لم يستطع (جاك) أن يصف ما حدث ، فى تقريره الرسمى ..

أو أنه لم ير ما يمكن وصفه !!

ففى مرآة السيارة الداخلية ، شاهد (أدهم) يثب داخل السيارة ، عبر النوافذ التى فتحها رجاله ؛ ليطلقوا النار منها ، فاستدار بسرعة لمواجهته ، وأثناء تلتقطان أصوات ضربات وشهقات ممتزجة ..

ومع استدارته ، تناثرت بعض الدماء على وجهه ، فأغلق عينيه لجزء من الثانية ، وعندما فتحهما ، شمله ذهول عام ، من قمة رأسه ، حتى ما يتجاوز أصابع قدميه .. صحيح أنه قد قرأ الكثير عن (أدهم) ، وطالع ملفه كله تقريبًا ، منذ فترة طويلة ، ثم راجع كل هذا طوال طريقه إلى مزرعة (جاكسون) ، عندما تلقّى الأمر باقتناص (أدهم) هناك ..

وصحيح أنه قرأ عشرات التقارير ، حول السرعة المدهشة ، والاستجابة الخرافية ، اللتين يتميَّز بهما رجل المخابرات المصرى ، إلا أنها كانت أول مرة يواجهه فيها مباشرة ، ويشاهد هذا بنفسه ..

فما بين رؤيته لـ (أدهم) ، واستدارته ، لم تمض ثوان خمس ، إلا أن الموقف كله تغيَّر فيها تمامًا ، كما لو أن يدًا ساحرة عملاقة قد عبثت بالسيارة وركابها ، فى مشهد سينمائى سريع ..

لقد استدار ليجد فوهة أحد مسدسات رجاله ، مصوَّبة إلى رأسه مباشرة ، وخلفها عينا (أدهم) الصارمتين ، أما الرجال الأربعة ، الذين انتقاهم باعتبارهم أفضل ما لديه من عناصر ، فقد كانوا فاقدى الوعى تمامًا ..

أحدهم كان أنفه محطمًا ، والثانى ينزف فمه بشدة ، والثالث جاحظ العينين ذاهل البصر ، أما السائق ، فقد سقط رأسه على عجلة القيادة ، وغاب عن الوعى تمامًا .

وبكل ذهول الدنيا ، كرَّر (جاك) :

ـ مستحيل !

بدت نظرات (أدهم) شديدة الصرامة ، وصوته بالغ القسوة ، وهو يقول :

ـ مر رجالك بإطلاق سراح رفاقى ، واطلب من طائرة (جاكسون) العودة .

حدق (جاك) فيه ذاهلاً ، ثم اختلس نظرة إلى رعاة أبقار (جاكسون) ، وهم يهرعون بخيولهم إلى المكان . ثم قال ، محاولاً اكتساب بعض الوقت :

ـ الرجال لن يطيعوا مثل هذا الأمر ، وطائرة (جاكسون) لن ...

قاطعه (أدهم) بإشارة صارمة ، وهو يقول :

ـ يكفينى هذا القدر .

غمغم (جاك) فى دهشة :

ـ أى أمر ؟!

قبل حتى أن يكمل عبارته ، كان (أدهم) قد غرس فوهة المسدس فى عنقه ، ثم مال لينتزع جهاز اللاسلكى من حزامه ، فهتف رجل المخابرات الأمريكى فى عصبية :

ـ لن يطيع رجالى أحدًا سواى .

تجاهله (أدهم) تمامًا ، وتجاهل حتى رعاة أبقار (جاكسون) ، الذين يقتربون من المكان ، وقال عبر اللاسلكى ، بصوت ولهجة (جاك) :

ـ اتركوا الأسرى ، وابتعدوا عن المنطقة .. هذا أمر .

اتسعت عينا (جاك) فى ذهول ، وهو يسمع صوته وأسلوبه ، ينبعثان من بين شفتى (أدهم) ، وهتف :

ـ كيف تفعل هذا ؟!

دفع (أدهم) فوهة المسدس فى عنقه أكثر ، وهو يتابع :

ـ أبلغوا طائرة (جاكسون) أنه يمكنها العودة ، ودعوا رعاة أبقاره الأوغاد يبتعدون .. هذا شأن أمريكى محض .

كان من المستحيل لمن يسمعه ، ألا يقسم بأن هذا (جاك لوريل) نفسه ، حتى أن هذا الأخير لم ينبس ببنت شفة ، من فرط ذهوله ، وظلّ يحدق فى (أدهم) على نحو عجيب ، فى حين ظلّ هذا الأخير

هادئًا ، يتابع الموقف من جـانبى السيارة بنظرات سريعة ، دون أن يفقد انتباهه مع حركة (جاك) .. وعبر اللاسلكى ، أتاه صوت أحد رجال (جاك) ، يقول فى توتر :

- أخبرنا كود الاتصال السرى .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وغمغم (جاك) فى عصبية :

- قلت لك إنهم لن يطيعوا الأمر .. لقد احتـاطت القيـادة لألاعيبك الخبيثة ، ومواهبك العجيبة ، فوضعت كود اتصال سرى ، يختلـف إذا ما كان المتصل واقعًا تحت تهديد خطير .

كانت خطة تقليدية ، تتبعها أجهزة المخابرات منذ الأزل ، إلا أنهـا غير معتادة ، فى مثل هذه العمليات العنيفة ..

وكادت تفسد ذلك الموقف كله ..

فحتى لو أخبره (جاك) بالكود ، فما الذى يضمن له أنه ليس كود التحذير ، من سيطرة الخصم على الموقف ، أو من الاتصـال تحت الضغط ؟!

فى موقف كهذا ، لا سبيل للتيقُّن ..

على الإطلاق ..

لا بد إذن من البحث عن أسلوب آخر ..

ولكن الوقت والموقف لم يكونا يسمحان بهذا ..

فرفاقه كلهم سقطوا فى قبضة رجال المخابرات الأمريكية ..

والطائرة رحلت ..

ورعاة أبقار (جاكسون) يحاصرونه ، بأكثر من مائة رجل ..

وكان كل هذا يعنى أنه قد خسر هذه الجولة ..

خسرها تمامًا .

* * *

4- قبضة الذئاب ..

« الأمريكيون أرسلوا ردًا رسميًا .. »

ألقى نائب مدير المخابرات المصرية العبارة ، فى صوت حاول أن يجعله خاليًا من المشاعر ، إلا أنه أتى على الرغم منه عصبيًا متوترًا ، فرفع المدير عينيه إليه ، وسأله فى اهتمام :

- وبمَ أجابونا ؟!

أجابه فى توتر ملحوظ :

- يقولون إنه بالنسبة لأوراقهم الرسمية ، فالعميد (أدهم) قد لقى مصرعه ، فى جزيرة الزعيمة ، فى قلب المحيط الأطلنطى . وأضافوا أنهم يحترمون التضحية التى قام بها ، وسيمنحونه أعلى وسام لديهم ، يمكن منحه لأجنبى .

التقى حاجبا المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، وقال :

- أهذا ما يردون به رسميًا ؟!

أومأ النائب برأسه إيجابًا ، فتابع المدير فى غضب :

- وماذا عن عينة الحمض النووى ، التى لم تتوافق مع ما أرسلوه لنا ؟!

زفر النائب ، مجيبًا :

- لقد أجابوا عن هذه النقطة بغطرسة مستفزة .

سأله المدير :

- ماذا قالوا ؟!

هزّ رأسه ، مجيبًا فى توتر :

- طالبوا منا البحث عن عينة حمضه النووى الفعلية ؛ لأنهم يشكون فى أنه تم استبدالها فى سجلاتنا ..

قال المدير فى حدة :

- أنت تعلم أن هذا مستحيل تمامًا ، فنحن نحتفظ بتقرير الحمض النووى فى ثلاثة أماكن منفصلة ، كل منها يخضع لقواعد أمنية شديدة ، وسرية مطلقة .

وافقه النائب بإيماءة من رأسه ، وقال :

- لقد أخبرتهم أنهم مخطئون ، وأنه ليست لدينا ذرة من الشك ، فى صحة العينة التى لدينا .

هزّ المدير رأسه ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- أتعلم ما الذى يعنيه إصرارهم ، وتشير إليه أجوبتهم ؟!

سأله النائب فى اهتمام :

- ماذا يا سيدى ؟!

أجابه فى حزم :

- أنهم لم يظفروا بـ (أدهم) بعد .

أطلّ تساؤل فى عينى النائب ، فتابع المدير :

- إنهم يرغبون فى أن تكون لهم حرية كاملة ، فى مطاردته وتعقبه ، والظفر به ، وإعلان أنهم يعتبرونه ميتًا رسميًا ، بوقف أية محاولات رسمية منا للمطالبة به ، أو التدخل بشأنه ، ويخلى الساحة كلها لهم .

عقد النائب حاجبيه ، وهو يستوعب المنطق ، قبل أن يقول :

- معذرة يا سيدى ، ولكننى قد أرى الصورة على نحو مختلف ، من زاويتى أنا .

سأله المدير فى اهتمام :

- أى نحو .

أشار بيده ، مجيبًا :

- ربما ظفروا به بالفعل ، ولا يريدون أن نطالبهم بإعادته ؛ لأنه كان يؤدى مهمة لهم ، ولا يمكن قانونًا اعتباره أسيرًا ، حتى نستبدله بآخرين ، كما أنهم لا يرغبون حتمًا فى أن يعيدوا إطلاق

مثله فى ساحة معركة المخابرات والجاسوسية ؛ لثقتهم فى أن وجوده لن يمنحهم سوى المركز الثانى ، على أفضل تقدير ..

بدا ذلك التفسير الثانى أيضًا منطقيًا ، على نحو جعل المدير يتراجع فى مقعده فى بطء ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ويعقد حاجبيه ، وينخرط فى تفكير عميق ..

وصمت ..

صمت بلا حدود ..

* * *

الهزيمة أصبحت حتمية ..

كل الموقف يؤكد هذا ..

الرفاق كلهم سقطوا ..

مائة من رعاة أبقار (جاكسون) يقتربون ..

رجال المخابرات الأمريكية يهاجمون ..

وهو رجل واحد ..

رجل واحد ، فى مواجهة جيش من الرجال ..

أى محلل أمنى أو عسكرى ، سيجزم بأن النهاية آتية لاريب ..

نهاية الرجل ..

ولكن مع (أدهم صبرى) ، قد تختلف الحسابات قليلاً .

أو تختلّ تمامًا ..

ففى شريعته ، كان الاستسلام هو آخر خيط ، يمكن أن يلجأ إليه ، أو يتمسك به ..

ولم يبال يومًا بالإبقاء على حياته ، لو أن ثمن هذا هو عزته ، أو كرامته ، أو حياة رفاقه أو وطنه

وكان دينه يستحثه على القتال والجهاد .

وحتى آخر رمق ..

لذا ، فقد تحرك (أدهم) فى سرعة مدهشة ، فلطم (جاك) بمقبض مسدسه ، وهو يقول :

ـ من يحتاج إلى كود لتصلكم !

كانت اللطمــة من العنف ، حتى أنهــا أفقدت رجل المخابرات الأمريكى القوى وعيه ، وضربت رأسه بالزجاج المصفح الأمامى .

وقبل حتى أن يرتد جسده ، كان (أدهم) قد بدأ حركته

فى سرعة خرافية ، دفع أجساد رجال المخابرات الأمريكيين الخمسة خارج السيارة ، ثم وثب إلى عجلة قيادتها ، وأعاد إدارة محركها ..

وانطلق ..

انطلق الفارس مرة أخرى ، وقد استبدل جواده بسيارة مصفحة قوية .. كل هـذا حدث فى ثوان معدودة ، أمام أعين (جاكسون) ورعاة أبقاره ، الذين استحثوا خيولهم على الإسراع ، حتى يمكنهم بلوغ السيارة ، قبل أن يحتمى بهـا (أدهم) ، و(جاكسون) نفسه يصرخ فيهم :

ـ عشرة آلاف دولار ؛ لمن يظفر به .

كانوا مائة من رعاة الأبقار ، كل منهم يمتطى صهوة جواد قوى ، وعشرة من رجال المخابرات الأمريكية ، فى سيارتين مصفحتين ، وبحوزتهم أسلحة متقدّمـة ، بعضها مصوّب إلى رءوس رفاق (أدهم) ، عندما بدأ هذا الأخير هجومه !! انطلق بسيارته فى براعة مدهشة ، وجرأة بلا حدود ، نحو رعاة الأبقار أولاً ، فواجهوه برصاصاتهم ، وأطلقوا النار ..

وابل من الرصاصات انهال على السيارة المصفحـة ، وارتطم بجسمها وزجاجها الأمامى ، وتناثر فى كل الاتجاهات ، و(جاكسون) يصرخ :

ـ الإطارات أيها الأغبياء .. الإطارات .

وصوّبوا أسلحتهم نحو الإطارات ، وهم يتفرقون بجيادهم فى كل الاتجاهات ، قبل أن تدهسهم سيارة (أدهم) ، المنطلقة كالصـاروخ بينهم .. ولكن السيارة لم تواصل انطلاقتها المباشرة ..

لم يكن (أدهم) واثقًا من طراز الإطارات ، ومما إذا كانت من المطاط الكثيف ، الذى يمكن أن تغوص فيه الرصاصات ، دون أن يفقد استدارته وفاعليته ، أم أنها ممتلئة بالهواء ، كإطارات السيارات العادية ، التى ستنفجر حتمًا ، لو أصابتها رصاصة واحدة ؛ لذا ، كان عليه أن ينطلق فى مسارات متعرّجة ، عندما مالت فوهات مسدساتهم إلى أسفل ، ليتفادى الرصاصات ، و ...

« لا جدوى من كل هذا يا سيّد (أدهم) . »

انبعث الصوت الأمريكى فجأة ، من جهاز الاتصال اللاسلكى فى السيارة المصفحة ، وهو ينطلق بها وسط رعاة أبقار (جاكسون) ، وتابع فى صرامة قاسية :

ـ يمكنك أن تقاتل كالأسود ، وربما تهزم تلك الجيش من أوغاد الزنجى ، إلا أنك لن تربح المعركة .

انعقد حاجباه ، دون أن يتوقّف ، وأمال عجلة القيادة بحركة حادة ، ليدور بالسيارة ، عائدًا إلى حيث رفاقه ، والصوت يواصل :

ـ ففى كل الأحوال ، يبقى رفاقك فى قبضتنا ، وتبقى ثقتنا فى أنك لن تتخلى عنهم أبدًا ، حتى لو كانت حياتك هى الثمن .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يرى المشهد من بعيد ، مؤكدًا فحوى ما يقوله صاحب الصوت القاسى ..

فهناك ، على مسافة تسمح بالرؤية ، كان رفاقه الأربعة راكعين على ركبهم ، ومسدسات رجال المخابرات الأمريكية مصوبة إلى رءوسهم ، وعلى جانبيهم وقفت السيارتان السوداوان القويتان .

وفى ثقة من قوة موقفه ، أضاف صاحب الصوت القاسى :

ـ نراك تقترب منا فى سرعة ، وسنسمح لك بالاقتراب ، حتى مسافة ثلاثمائة متر ، وبعدها سننسف رأس أحد رفاقك أمام عينيك ، كل عشرين ثانية ، حتى تستسلم لنا بإرادتك ، وأنت خير من يعلم أننا لن نتردد لحظة ، فى تنفيذ ما نهدد به ؛ فأرواحهم جميعًا لا تساوى عندنا شروى نقير ..

وصمت لحظة ، بلغ فيها توتر (أدهم) مبلغه ، قبل أن يضيف :

ـ إننا نريدك أنت .

مع قوله ، ضغط (أدهم) فرامل السيارة المصفحة فى قوة ، وأوقفها على مسافة أربعمائة متر منهم ، ثم التقى حاجباه فى تفكير متوتر عميق ، وهو يطالع ذلك المشهد أمامه ..

لقد جاب الدنيا ، بحثًا عن رفاقه ..

قاتل دولة كاملة لاستعادتهم ..

جازف بمصيره ومستقبله وحياته نفسها ، من أجل إنقاذهم ..

ووجدهم أخيرًا ..

عثر عليهم أحياء ، منهكين ، متهالكين .. أسرى ..

وحرّرهم ..

كان يتصوّر أنه يستطيع إخراجهم من قلب الجحيم ، إلا أن ذلك المشهد الرهيب ، الذى يراه أمامه ، يؤكد أنه لم يفلح ..

الكثرة غلبت الشجاعة ..

لم يعد هناك مفرّ ..

ومع توقفه وتفكيره ، لحق به رعاة أبقار (جاكسون) ، والتفوا حول السيارة ، وصوّبوا إليها مسدساتهم ، وجاء (جاكسون) نفسه مختالاً ، على صهوة جواد ينافسه سوادًا ، وقال فى شماتة زعيم مجرمين :

ـ كان ينبغى أن تدرك أن الفرار من الدنيا كلها شىء ، ومن (جاكسون) شىء آخر أيها المصرى .

لم يبال (أدهم) بكلماته هذه ، وهو يفكّر بنفس العمق ، ويواصل التطلّع إلى مشهد رفاقه ، وأسلحة الأمريكيين مصوّبة إلى رءوسهم ، فصرخ (جاكسون) ، محاولاً استعادة هيبته بين رجاله :

ـ هيا .. غادر هذه السيارة ، قبل أن أحولها إلى قبر دائم يضم رمادك المحترق ، أو ...

قاطعه (أدهم) ، عبر مكبّر صوت داخلى ، فى صرامة :

ـ اصمت .

اتسعت عينا (جاكسون) ذهولاً وغضبًا ، وبدا له أن الكلمة قد وجّهت إليه إهانة بالغة أمام رجاله ، فانتفض جسده ، وسحب مسدسه ، الذى يندر أن يسحبه ، وكاد يصرخ بعبارة ما ..

ولكن أحدًا لم يكن يستمع إليه ..

ففى حركة حاسمة ، تشف عن حزم واقتناع ، التقط (أدهم) مسماع جهاز الاتصال اللاسلكى فى السيارة ، وضغط زره الجانبى ، قائلاً بنفس الصرامة الشديدة :

ـ وماذا تعرض أيضًا مقابل استسلامى ؟!

مرّت لحظة من الصمت ، توحى بأن السؤال قد أثار دهشة المستمع ، قبل أن يقول بنفس القسوة :

ـ حياة رفاقك تكفى .

قال (أدهم) ، فى صرامة أكثر :

ـ ومن يضمنها لى ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ إننا لن نقتلهم لو استسلمت ، وهذا ضمان كافٍ .

قال (أدهم) :

ـ وماذا بعد استسلامى .. من يؤكد أنهم سيكونون سالمين ؟! ماذا لو استسلمت لإنقاذ حياتهم ، ثم تخلصتم منهم بعدها ؟! أسيعنى هذا أن تضحيتى كانت بلا طائل .

قال الرجل فى صرامة :

ـ لا توجد أية ضمانات لذلك .

كان يتحدث باعتباره فى مركز قوى ، وأنه ليس أمام (أدهم) سوى الموافقة على شروطه ؛ لذا فقد وثبت دهشته إلى ذروتها ، عندما قال هذا الأخير ، فى صرامة أشد :

ـ هذا لا يكفى .

شمل الغضب الرجل ، فقال فى حدة :

ـ سيكفى عندما أنسف رأس أولهم .. ما رأيك بمن نبدأ ؟!

وجذب مشط مسدسه فى غضب ، وألصق فوهته برأس (منى) ، وهو يكمل فى حدة :

ـ أبزميلتك الجميلة ؟!

أجابته (منى) فى صرامة :

ـ هيا .. افعل .. لو أن حياتى ثمنًا لحياته ، فلن أتردد لحظة عن منحه إياها .

تضاعف غضبه ، وهو يدير فوهة مسدسه نحو (قدرى) ، صارخًا :

ـ أم بهذا البدين ؟!

سرى توتر عنيف فى جسد (قدرى) ، وشعر بكل قطرة من دمائه تنضب ، إلا أنه غمغم عبر حلق شديد الجفاف :

ـ ليمكننى أن آكل شيئًا أولاً .

كاد رجل المخابرات الأمريكى يدير فوهة مسدسه نحو (ريهام) ، عندما أتاه صوت (أدهم) ، يقول فى برود صارم :

ـ لو أننى فى مكانك ، لما حاولت حتى أن أفعل ؛ خوفًا على مستقبلى .

انعقد حاجبا الرجل فى شدة ، وتبادل رفاقه نظرة عصبية متسائلة ، ولكن (أدهم) تابع بنفس اللهجة :

ـ كلنا نعلم أنكم جميعًا هنا من أجلى ، وأن أوامركم تحتم إعادتى حيًا ، بدليل أن رصاصاتكم كانت مصوبة نحو جوادى ، وليس نحوى ، وكلنا محترف ، ويدرك كيف يفهم هذا فورًا ، ولو تصرف أحدكم بحماقة ، أفسدت الهدف من المهمة ، فسيسىء هذا إليكم جميعًا .

صاح به الرجل :

- لو قتلنا أحد رفاقك ، لن تفشل مهمتنا .

بدا صوت (أدهم) أشبه بكتلة من الصرامة والحزم والقوة ، وهو يقول :

- لو مسستم شعرة واحدة من أيهم ، لن أتوقف عن قتلكم لحظة ، حتي أضمن وصول آخركم إلى غياهب الجحيم ، ولا ريب في أن مطالعتكم لملفي أخبرتكم أنه ، على الرغم من الموقف ، يمكنني أن أبلغ هذا القدر .

هتف الرجل في حدة :

- مستحيل ! أنت مجرد رجل واحد ، ونحن ...

قاطعه (أدهم) بنفس الصرامة القوية القاسية :

- وأنتم أشبه بجيش صغير .. جيش يشبه منظمة (المافيا) ، أو (سكوربيون) ، أو غيرها .. أليس كذلك ؟!

كانت ضربة قوية ، استغل بها ذلك العامل ، الذي تتجنبه كل أجهزة المخابرات في عملها ..

الشهرة ..

شهرته الواسعة غير الطبيعية ، في عالم المخابرات ، كانت تترك دومًا أثرًا واضحًا ، في نفوس مستمعيها ..

وهذا الأثر يتضاعف ألف مرة ، في نفوس المحترفين ..

هذا لأنهم ، بحكم تعاملهم في المضمار نفسه ، أكثر من يدرك صعوبة صنع مثل هذه الشهرة ، في عالم يتصارع فيه أصحاب أذكى العقول ، وأبرع الحيل ، وأقوى المواقف ..

يدركون جيدًا ما الذي يعنيه أن يتصدى رجل واحد لمنظمة (المافيا) ، فيكسر شوكتها ، ويهزم زعماءها ، وينتصر عليها(*) ..

يدركون أن منظمة (سكوربيون) كلها ، قد انهارت بفعل رجل واحد(**) .. رجل يواجهونه الآن ..

وعلى الرغم من سيطرتهم الظاهرية على الموقف ، وتفوقهم العددي فيه ، ومن أنهم أكثر من مائة رجل ، ضد رجل واحد ، إلا أنهم ، وفقًا لتاريخه ، لايمكنهم الجزم بنتيجة القتال ..

ملفه يؤكد هذا ..

وقادتهم يقرونه ..

وأوامرهم صريحة ..

لابد من إحضاره حيًّا ..

وبأي ثمن ..

(*) راجع قصة (شيطان المافيا) .. المغامرة رقم (48)

(**) راجع قصة (الرجل الآخر) .. المغامرة رقم (81) ..

صحيح أنه وحده ، ولكنه داخل سيارة مصفحة خاصة ، تم صنعها فى أفضل شركة للتصفيح فى العالم ، وتكلفت ما يزيد عن عشرة ملايين دولار .. ثم إنه لم يكشف أسلحتها السرية بعد ..

ولو فعل ستصبح لديه قوة جبارة .

قوة تضاف إلى قوته ..

أضف إلى هذا جرأته ، وسعة حيلته ، ومهاراته التى اكتظ بها ملفه ..

وتاريخه !

ثم لنطرح سؤالاً واحدًا ..

ماذا سيكون رد فعله ، لو قتلوا أحد رفاقه بالفعل ؟!

هل سيستسلم ، للحفاظ على الآخرين ؟!

أم ينتقم فى غضب ؟!

ملفه يقول إنه حارب (المافيا) كلها ، انتقامًا لزميله ..

الاحتمال وارد إذن ..

والمخاطرة مقلقة ..

مقلقة للغاية ..

« ماذا تقترح إذن ؟! »

تساءل رجل المخابرات الأمريكى عبر اللاسلكى فى عصبية ، فأغلق (أدهم) عينيه لحظة فى ارتياح ، قبل أن يستعيد صرامته ، مجيبًا :

- طائرة (جاكسون) .

سمع (جاكسون) هذا الجواب ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، فى يد رجل المخابرات ، فقال فى حدة :

- وما شأن طائرتى ؟

أجاب (أدهم) بنفس الصرامة :

- عليها أن تعود إلى هنا ، ويصعد إليها رفاقى أولاً ، وتقودها (منى) بنفسها ، وعندئذ ..

قاطعه رجل المخابرات فى حدة وعصبية ..

- وعندئذ قد تواصل قتالك .

تجاهل (أدهم) المقاطعة تمامًا ، وواصل :

- وعندئذ سأسلم نفسى لكم طواعية .

التقى حاجبا الرجل فى شدة ، وبدا وكأنه يفكر جديًا فى العرض ، فصاح به (جاكسون) فى حدة :

ـ هراء .. إنه يخادع .

رمقه رجل المخابرات فى صرامة ، وسأل عبر اللاسلكى ، وهو يتطلّع إلى سيارة (أدهم) ، المحاطة برعاة الأبقار فى توتر :

ـ ومن يضمن لى أن تلتزم بكلمتك ؟!

قال (أدهم) فى حزم :

ـ أقسم على هذا بشرفى .

أطلق (جاكسون) ضحكة عصبية ساخرة ، تعلن عدم تصديقه للقسم ، أو عدم إيمانه بالشرف أساسًا ، وهمّ رجل المخابرات يقول شيء ما ، عندما انبعث صوت (جاك) فجأة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول فى حزم :

ـ أنا أوافق .

استدار الكل فى دهشة إليه ، وقد استعاد وعيه ، وحمل جهاز اللاسلكى الخاص به ، واقترب منهم فى خطوات عرجاء ، فهتف زميله :

ـ (جاك) .. كيف يمكنك أن تثق فى ...

قاطعه (جاك) فى صرامة :

ـ قلت إننى أوافق .

ثم أضاف ، وهو يتطلّع إلى السيارة ، التى داخلها (أدهم) :

ـ لو أنك طالعت ملفه ، بالقدر الذى فعلته أنا ، لأدركت ما الذى تعنيه عنده كلمة الشرف ..

وكان هذا يعنى أن الصفقة العجيبة قد تمت ..

الصفقة مع الشيطان ..

الأمريكى .

* * *

5ـ الصــفقة ..

بدا التوتر ملحوظًا ، على وجـه نـائب مدير المخـابرات العامـة المصرية ، وهو يدلف إلى حجـرة المدير ، ملوّحًا بملـف صغير فى يده ، وهو يقول :

ـ برقية عاجلة من خلف المحيط الأطلنطى يا سيّدى .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ من (ن ـ 1) ؟!

هزّ النائب رأسه نفيًا ، وأجاب بصوت أكثر توترًا :

ـ بل من المقدّم (منى) .. (منى توفيق) .

ارتفع حاجبا المدير ، فى دهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ (منى) ؟!

أومأ النائب برأسه إيجابًا ، وأضاف :

ـ تقول إنها والسيّد (قدرى) ، و(شريف) و(ريهـام) يستقلون طـائرة (جاكسـون) الخاصـة ، وينطلقـون بها إلـى (نيويـورك) ، ويطلبون من مكتبنـا هنـاك اتخـاذ كل الإجـراءات اللازمـة ؛ حتـى لا تتعرّض طائرتهم للخطر .

صمت المدير لحظة ، عاد حاجباه خلالها ينعقدان بشدة ، قبـل أن يقول فى صرامة ، لم تخل من نبرة الدهشة بعد :

ـ إذن فـ (ن ـ 1) كان على حق .. لقد عثر عليهم ، وأنقذهم أيضًا .

شمله الصمت لحظة إضافية ، هتف بعدها :

ـ ولكن أين هو ؟! لماذا أرسلت (منى) البرقية ؟!

هزّ النائب رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لقد طرحت على نفسى هذا السؤال ، ضمن كومة من الأسئلة يا سيادة الوزير ، إلا أننى لم أجد لأيهـا جوابًا شـافيًا .. لماذا أرسلت هى البرقية ؟! ولماذا لم تشر فيها إلى أنه معهم ؟!

ازداد انعقاد حاجبى المدير ، وغمغم :

ـ أخشى أن ...

لم يكمل عبارته ، وإنما استغرق فى التفكير بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، وقال فى حزم قيادى :

ـ أبرق إلى الأمريكيين فورًا ، وأخبرهم أننا قد علمنا ، من مصدر لا يرقى إليه الشك ، أن أربعة من رجالنا قد نجوا من الموت فى أرضهم ، وأنهم يستقلون الآن طائرة خاصة ، من (تكساس) إلى (نيويورك) ، واطلب منهم تأمين أقصى حراسة لهم .

أومأ النائب برأسه، وتردد لحظة، ثم سأل في حذر :

- أتظنهم سيستجيبون يا سيدي ؟!

تراجع المدير في مقعده، وظل يتطلع إليه في توتر لحظات، ثم لم يلبث أن قال في حزم، أخفى به توتره وانفعاله :

- هذا كل ما نملكه لهم .

وكان على حق في قوله تمامًا ..

فإجابة كل الأسئلة، ومصير الرفاق الأربعة، أصبح في علم الغيب ..

ولا أحد يمكنه إجابة سؤال واحد، على نحو واثق ..

لا أحد ..

على الإطلاق ..

* * *

« لقد نفذت الجزء الخاص بي من صفقتنا .. »

نطق (جاك) العبارة، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يتطلع إلى (أدهم)، الذي ما زال داخل السيارة المصفحة، فصمت هذا الأخير بضع لحظات، وهو يتابع ببصره إقلاع طائرة (جاكسون)، وأدار مؤشر جهاز الاتصال في السيارة، على موجة الطائرة، وقال في صوت، أراد أن يبث فيه أكبر قدر من الثقة والهدوء :

- أكل شيء على ما يرام يا عزيزتي ؟!

شعرت (منى) بالقلق يعتصر صدرها، وهي تقول :

- لا تقلق بشأننا يا (أدهم) .. كلنا هنا قلقون بشأنك أنت ..

أدار عينيه في ذلك الجيش المحيط بالسيارة، وطالع وجوه رجال المخابرات الأمريكية المتحفزة، ورعاة أبقار (جاكسون)، وزعيمهم الأسود، الذي بدا شديد التميز والوضوح وسطهم، ونظر إلى عشرات الأسلحة المصوبة إليه، وقال بنفس الهدوء :

- وفيم قلقكم ؟!

هتفت بصوت أقرب إلى البكاء :

- ليس من العدل أن تدفع حياتك ثمنًا لحياتنا .

تجاهل العبارة تمامًا، وكسا صوته بحزم القائد، وهو يقول :

- توجهي بالطائرة إلى (نيويورك) مباشرة، وأبلغي السلطات لاسلكيًا بهذا رسميًا، وستوافيك السفارة المصرية، في كل ما تذهبين إليه، وفي (نيويورك) ستجدون رجالنا في انتظاركم، لنقلكم بطائرة خاصة، إلى أرض الوطن .

هتف (قدري) :

- لن نرحل بدونك .

أجابه بمنتهى الصرامة :

ـ سترحلون فور وصولكم .. هذا أمر .

تبادل الكل نظرة شديدة التوتر ، داخل طائرة (جاكسون) ، وغمغمت (منى) ، ولم تعد تستطيع كبح دموعها :

ـ (أدهم) .. إننى ...

قاطعها فى حزم :

ـ أعدى أقداح الشاى الساخن فى (القاهرة) يا عزيزتى ، وأبقى الموقد مشتعلاً ، فكم أتوق لرائحة الشاى المصرى العطرة !

هتفت ، وقد أدركت أنه ينهى المحادثة :

ـ رباه ! (أدهم) ..

قطع الاتصال دفعة واحدة ، قبل أن تتم عبارتها ، فتجمدت دموعها فى عينيها ، وهتفت :

ـ لن نتركه خلفنا .

تبادل (شريف) و(ريهام) نظرة قلقة متوترة ، وغمغم (شريف) :

ـ ولكنه أمر .

وأضافت (ريهام) :

ـ من الأستاذ .

صاحت (منى) ، وهى تقود الطائرة بعيون أغرقتها الدموع :

ـ ليس من حقه أن يفعل .

أجابها (قدرى) ، محاولاً كبت ذلك القلق العارم ، الذى يتفجر فى كل خلية من جسده الضخم :

ـ ألا تعرفين (أدهم) ؟! ما دام أمرنا أن نرحل ، فليس أمامنا سوى الطاعة .

وصمت لحظة ؛ ليقاوم غصة فى حلقه ، قبل أن يضيف :

ـ إنه يعرف ما يفعله .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) هناك ، يغلق جهاز الاتصال اللاسلكى للمرة الثانية ، و(جاك) يهتف فى توتر :

ـ مازلت أنتظر .

قال (جاكسون) فى عصبية :

ـ أى خنوع هذا ، الذى تتعامل به مع ذلك المصرى ؟! إنه فى قبضتك ، يقف وسط رجالك ورجالى ، وكلنا نصوب إليه أسلحتنا .. إشارة واحدة منا ، ويتحول إلى مصفاة بالية ، من كثرة الرصاصات .

قال (جاك) فى صرامة :

ـ تلك السيارة ستصمد أمام قنبلة مدفع يا رجل .

صاح (جاكسون) :

ـ سننسفها بألف قنبلة إذن .. بمائة ألف .. لا أحد يتحدّى (جاكسون) فى داره .. هل تفهم ؟! لا أحد ؟!

استدار إليه (جاك) بحركة حادة ، وأمسك به من عنقه فجأة ، بقسوة غير طبيعية ، وهو يقول بلهجة ، امتزج فيها الغضب بالصرامة :

ـ ذلك الذى تراه أمامك ليس قادرًا على أن يتحداك فى عقر دارك فحسب ، ولكن على أن يهزمك وكل أراجوزاتك أيضًا .. ولاتجعل وجوده داخل تلك السيارة الساكنة يخدعك ، فلو أنه انطلق بها ، لما تمكن جيش كامل من إيقافه ، ولو أنك تشك فى حرف واحد مما قلته ، أجر اتصالك بزعيمتك ، وسلها كم مرة هزمها ذلك المصرى ، وكم منظمة إجرامية وجاسوسية سحقها بقدمه ، وأذل ناصيتها بدهائه .

انعقد حاجبا (جاكسون) ، وهو يقول فى حدة :

ـ أتقاتله ، أم أنك مبهور به ؟!

صمت (جاك) لحظة ، ثم دفعه ، مجيبًا فى عصبية :

ـ الاثنان معًا .

همّ (جاكسون) بالاعتراض مرة أخرى ، مدفوعًا بكل غضبه مما حدث ، لولا أن انبعث صوت (أدهم) فى تلك اللحظة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول :

ـ أنا قادم .

استدار (جاك) إلى السيارة بحركة حادة ، وزفر أحد رجاله ، مغمغمًا :

ـ أخيرًا ..

وفى توتر شديد ، تعلّقت كل العيون بباب السيارة ، الذى انفتح فى هدوء وبطء ، وخرج منه (أدهم) المحاصر ، فى قوة وثقة ، ليقف إلى جوار السيارة ، عاقدًا كفيه أمام صدره القوى ، ومديرًا بصره فى كل من حوله ..

وبحركة غريزية ، صوّب الكل فوهات أسلحتهم نحوه ، وتحفّز لإطلاق النار ، فيما عدا (جاك) ، الذى تقدّم من (أدهم) ، وقال فى ارتياح :

ـ كنت واثقًا من أنك ستفى بوعدك .

رمقه (أدهم) بنظرة صارمة ، فأخرج من جيبه زوجًا من الأغلال الفولاذية ، ولوّح به ، قائلاً :

ـ أنت تعلم أننى مضطر .

رفع (أدهم) معصميه إليه فى صمت ، فهزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ خلف ظهرك يا سيِّد (أدهم) .. هذا أكثر أمانًا .

خُيِّل إليه أنه قد لمح شبح ابتسامة ساخرة ، فى ركن شفتى (أدهم) ، قبل أن يقول :

ـ لا بأس .

قيِّد (جاك) معصميه خلف ظهره ، بالأغلال الفولاذية ، والكل يصوِّب إليه أسلحته فى تحفُّز ، وما إن انتهى حتى هتف (جاكسون) فى انفعال شديد :

ـ هيا .. اقتله يا رجل .

تجاهله (جاك) تمامًا ، وأشار إلى رجاله ، فانقضَّ ثلاثة منهم على (أدهم) ، ودفعوه نحو نفس السيارة المصفحة ، التى كان داخلها فالتفت (جاكسون) إلى رعاة أبقاره ، وصاح فى غضب :

ـ اقتلوا هذا الرجل .

فى لحظة واحدة ، ارتفعت فوهات مسدساتهم كلها نحو (أدهم) ، وارتفعت فوهات أسلحة رجال المخابرات نحوهم ، وبدا وكأن الموقف كله سينفجر ويتحوَّل فى لحظة إلى مجزرة دموية ، لولا أن صاح (جاك) بمنتهى الصرامة والقسوة :

ـ رصاصة واحدة ستساوى حياتك يا (جاكسون) .

استدار إليه (جاكسون) ، فى حدة وغضب ، ولكنه تابع بنفس الصرامة القاسية الغاضبة :

ـ إدارة المخابرات المركزية الأمريكية كلها تعلم أننا هنا ، وكل شىء تتم متابعته بالأقمار الصناعية ، ولو أنك قاومتنا ، أو أطلقت علينا رصاصة واحدة ، ولو من باب التحذير ، ستنقلب عليك الإدارة الأمريكية كلها ، ولن تجد الشرطة وحدها فى مواجهتك ، بل الجيش وأجهزة المخابرات ، ومكافحة الإرهاب أيضًا ، وفى ظل الظروف والقوانين الحالية ، سيتم سحقك فى لحظات ، قبل حتى أن تتصل بمحام واحد ، من جيش المحامين القذرين ، الذين يعاونونك على كسر القانون وتجاوزه .

بدا توتر ملحوظ على وجه (جاكسون) ، فاقترب (جاك) منه ، حتى امتزجت أنفاسهما ، وهو يواصل ، فى قسوة أكثر :

ـ والآن ، دعنا نر كم تبلغ شجاعتك ، فى مثل هذه الظروف يا زعيم الأوغاد واللصوص .

مضت لحظات ، وكلاهما يتطلَّع إلى عينى الآخر فى توتر صارم ، ورجال الطرفين يتحفزون للخطوة التالية ، حتى قال (أدهم) ، فى سخرية واضحة :

ـ هيا يا (جاكسون) .. إضاعة الوقت لن تساوى شيئًا .. تعلم أنك ستستسلم فى النهاية .

تفجّر وجه (جاكسون) بالغضب ، وهتف :

ـ ليس هذا من شأنك .

رفع (أدهم) حاجبيه بدهشة مصطنعة ، وهو يقول بنفس السخرية :

ـ ليس من شأنى ؟! عجبًا ! كنت أتصوّر أن الفريسة لها شأن ، فى جدال الصيادين حول مصيرها .

تضاعف غضب (جاكسون) ، وقال (جاك) فى توتر :

ـ اصمت يا سيّد (أدهم) .. أرجوك .

هزّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال :

ـ لست أظن صفقتنا كانت تتضمّن الصمت .

لم يكن (جاك) مستعدًا لدخول ذلك الجدل معه ؛ لذا فقد صاح فى غضب شديد ، موجهًا حديثه إلى (جاكسون) :

ـ مر رجالك بخفض أسلحتهم .

مرّت لحظة أخرى من الصمت ، شعر (جاكسون) خلالها بكل غضب الدنيا ؛ لأنه مضطر للاستسلام أمام رجاله ، ومع تردّد ، صرخ (جاك) :

ـ هيا .

لم يكن أمام (جاكسون) سوى أن يستسلم ..

صحيح أنه وسط مزرعته ، ومحاط برجاله ، وله سطوة ونفوذ كبيرين فى عالم الجريمة ..

وصحيح أن القانون لم يظفر به قط ، منذ بدأ صراعه معه ؛ بسبب جيش محاميه ، الذين يتقاضون منه مبالغ طائلة ؛ لحمايته وتأمينه ، وإخراجه من كل مأزق يضع نفسه فيه ..

ولكن الظروف هذه المرة تختلف ..

تختلف تمامًا ..

الإدارة الأمريكية كلها متحفزة ، متوترة ، تشن حربًا على ما أسمته بالإرهاب ، دون أن تضع له معايير ومقاييس واضحة ..

فقط الإرهاب ..

كل فعل ، لا يروق للإدارة الأمريكية ، أصبحت تنسبه إلى هذا المصطلح الهلامى المطاط ..

كل شىء ..

كل دولة ..

كل منظمة ..

وكل شخص ..

يكفى فقط أن تشير الإدارة الأمريكية إلى جهة ما ، وتنطق الكلمة السحرية ..

الإرهاب ..

عندئذ ، تنقلب الدنيا كلها ..

تشتعل النيران ..

تنشب الحروب ..

تنهار الأنظمة ..

كل هذا ، فى غياب المنطق ، والقانون ، وحتى الحريات ، التى تنادى بها (أمريكا) ، وتتخذها حجة لاستعمار أية دولة تتعارض معها ..

لو حتى تتصوّر هى هذا ..

والإدارة التى أسقطت أنظمة كاملة ، لن تتردد لحظة واحدة فى سحق عصاباته كلها بضربة واحدة ، لو أنه وقف فى طريقها ..

ليس أمامه إذن سوى الاستسلام ..

مهما كان الثمن ..

« اخفضوا أسلحتكم .. »

هتف بالعبارة فى عصبية ، وهو يلوّح بيديه لرجاله ، الذين ترددوا لحظة ، فصرخ فيهم فى غضب :

- ماذا تنتظرون ؟!

أطاعوه جميعًا هذه المرة ، وخفضوا أسلحتهم ، وهو يقول لـ (جاك) فى عصبية واضحة :

- والآن ماذا ؟!

أجابه (جاك) فى صرامة :

- سنرحل .

قال فى عصبية :

- هكذا ، ببساطة !

تجاهله (جاك) ، واتجه نحو السيارة ، التى وضعوا فيها (أدهم) ، وهو يجيب فى صرامة ، وكأنما يكمل عبارته :

- لقد حصلنا على بغيتنا .

وقف (جاكسون) صامتًا مبهوتًا ، يتابع السيارات المصفحة الثلاث ، وهى تنطلق مبتعدة ، قبل أن يغمغم أحد رجاله :

- هل ستتركهم ينصرفون يا مستر (جاكسون) ؟!

التفت إليه (جاكسون) بكل انفعاله ، وصاح فى غضب :

- اصمت أيها الغبى ، واغرب عن وجهى ، قبل أن أنسف رأسك برصاصة واحدة .

أسرع الرجل يعدو بجواده مبتعدًا من أمامه ، ولحق به رعاة الأبقار الآخرين ، و(جاكسون) يلوّح بقبعته ، صارخًا فيهم ، بكل ما ملأ نفسه من غضب :

- هيا .. ابتعدوا .. هيا .

بقى وحده أخيرًا على صهوة جواده ، مع حارسيه الرئيسيين ، اللذين لا يفارقانه قط ، وتبادل كلاهما نظرة مع الآخر فى صمت ، قبل أن يتنحنح أحدهما ، ويقول فى حذر :

- هل نعود إلى المزرعة يا مستر (جاكسون) ؟!

صاح به (جاكسون) فى غضب ، وهو يلكز جواده :

- وماذا غيرها أيها الغبى ؟

لحق به حارساه ، وهو ينطلق بالجواد مفرغًا فى انطلاقته كل غضبه وحنقه مما حدث ، ومرّت بذاكرته لحظة صورة ذراعه اليمنى ، الذى لقى مصرعه فى القبو السرى ، فطرحها عن رأسه بسرعة ، ووثب عن الجواد عند المزرعة ، واندفع نحو حجرة مكتبه ، وهو يصيح فى غضب :

- أريد أن أبقى وحدى بعض الوقت .. إياك أن يقاطعنى أحد .

انطلق إلى الحجرة ، وأغلق بابها خلفه فى عنف ، ولم يكد يفعل ، حتى سمع صوتًا أنثويًا هادئًا ، يقول :

- جميل منك أن تتركنا وحدنا .

استدار بحركة حادة إلى مصدر الصوت ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وفغر فاه فى ذهول ، وهو يحدّق فى (تيا) ، التى بدت هادئة مبتسمة ، تمسك سكينًا رفيعًا ، وهى تضيف :

- أراهن أنك قد نسيتنى ، فى غمرة الحماس .. أليس كذلك يا عزيزى ؟!

واختنقت صرخة استنجاد فى حلق (جاكسون) ..

آخر صرخة ..

* * *

حمل صوت مدير المخابرات الأمريكية ارتياحًا واضحًا غامرًا ، وهو يقول عبر جهاز الاتصال الخاص ، الذى يوصل مكتبه بمقر الزعيمة الغامضة :

- لقد سقط فى قبضة رجالى .

تألقت عيناها ، وسرت فى جسدها قشعريرة عجيبة ، وهى تهتف فى انفعال :

- حقًا ؟!

سألها متفاخرًا :

ـ أكان لديك شك فى هذا ؟!

قالت فى صرامة :

ـ أكنت أنت واثقًا ؟!

تجاهل ما تعنيه عبارتها ، وقال فى حزم :

ـ ولكن هناك مشكلة .

سألته فى حدة :

ـ هل استعاد السيطرة ؟!

أجابها بسرعة :

ـ كلاَّ ، ولكن الإدارة ترفض منحك إياه .

احتقن وَجهها فى شدة ، وهى تقول :

ـ ماذا تعنى بأنها ترفض هذا ؟! إنه لى منذ البداية !!

أجابها فى حزم أدهشها :

ـ (أدهم صبرى) لم يكن أبدًا ملكًا لك ، ولا لأى أحد آخر .. ثم إنه ليس أسيرًا يمكن التفريط فيه ، وخاصة بعد كل ما فعله برجالنا وقواتنا فى (العراق) .

قالت فى حدة شديدة :

ـ كان بيننا اتفاق واضح .

قال بنفس الحزم :

ـ لم يكن اتفاقًا بالمعنى المعروف .. كان اقتراحًا منك ، لم نعلن نحن قبولنا له .

بدت غاضبة بشدة ، وهى تقول :

ـ أى تلاعب هذا ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ الإدارة ترى أنه ليس تلاعبًا ، وإنما هو اتفاق لم يكتمل ، ولقد حصلنا على أسير خاص ، على درجة عالية من الأهمية ، وضالع بشدة فى عمليات الإرهاب ، التى تعرضت لها قواتنا ، ووفقًا لنظمنا ، لا بد من أن يبقى فى قبضتنا ، ولن نجازف بمنحه إلى أية جهة أخرى ، حليفة كانت أو صديقة .

قالت فى غضب :

ـ ولكن المصريين ما زالوا يطالبون به .

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ لن نسلمهم له .. لقد أعددنا كل ما يلزم ، لنثبت موته هناك ، فى مزرعة (جاكسون) .

قالت متحدية :

ـ وماذا عن حمضه النووى ؟!

حملت صرامته لمحة ساخرة ، وهو يقول :

ـ أظنك خير من يدرك ، كيف تدار هذه اللعبة !

تعقد حاجباها فى شدة ، وهى تتساءل عما يشير إليه ، وسألته فى حذر ، محاولة أن تنتزعه بعيدًا عن تلك النقطة :

ـ وماذا ستفعلون به ؟! لو أنكم تتصورون أنه باستطاعتكم استجوابه واستنطاقه ، فأنتم ...

قاطعها فى حزم :

ـ هذا لم يخطر ببالنا قط .

سألته فى حذر :

ـ ماذا قررتم بشأنه إذن ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ سنرسله إلى حيث نرسل كل شخص ، يمثل خطرًا على الأمن القومى الأمريكى .. إلى (جوانتانامو) .

وعلى الرغم من أن حياتها كلها تعتمد على القسوة والوحشية ، شعرت الزعيمة أن هذا يعتبر مصيرًا بشعًا ، بالنسبة لرجل مثل (أدهم صبرى) ..

بشع إلى أقصى حد .

* * *

6- الوحـوش ..

تـألقت عينـا (جـاك) علـى نحـو ملحـوظ ، وهـو يحـاول الاسترخاء فى سيارته المصفحة ، قائلاً لـ (أدهم) :

- شخصيتك تدهشنى فى الواقع يا رجل .

سأله (أدهم) فى هدوء ، ومعصماه مقيدان بالأغلال الفولاذية خلف ظهره :

- ولمـاذا ؟!

أشار (جاك) بيده ، قائلاً :

- تقاتل كالأسود ، عندما تواجه الخطر ، وتندفع حياتك دون تردد ، من أجل حياة الآخرين .. أى تناقض مدهش هذا ؟! أتحب الحياة ، أم لا تبالى بها ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

- الاثنان معًا .

قال فى شىء من الحدة :

- جواب لا معنى له .

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

- ربما بالنسبة لك ؛ لأن قناعاتك كلها ترتبط بالحياة وحدها ، فيها تنتصر أو تنهزم .. تربح أو تخسر ، أما الموت ، فهو نهايـة كل شىء .

غمغم (جاك) :

- أو ليس كذلك ؟!

تابع (أدهم) ، وكأنه لم يسمعه :

- أما فى شريعتى ، فالأمر يختلف .. الموت عندى ليس نهاية ، بل هو بداية .. بداية أقضى حياتى كلها فى استعداد لها ، فأقاتل وأناضل من أجل دينى ، ووطنى ، ومبادئى ورفاقى ، وأموت دون أدنى تردُّد لحماية كل هذا والدفاع عنه .

مطَّ (جاك) شفتيه ، وقال ، وقد تسللت إلى صوته لمحة واضحة من عصبية شديدة :

- تتحدَّث مثل الإرهابيين .

قال (أدهم) فى سخرية :

- آه .. هذا هو تعريف الإرهاب فى شريعتكم إذن .. أن تناضل من أجل عقيدتك ، وتموت دون تردُّد فى سبيلها .. هذا ما تحاربونه .

فقد (جاك) رصانته ، وهو يقول فى حدة :

- موتوا كما يحلو لكم ، ولكن لا تقتلوا أولادنا .

أجابه (أدهم) في صرامة :

- وماذا عن أولادنا نحن ، الذين تريقون دماءهم ، دون وازع من أخلاق أو ضمير ، ودون أن تهتز في أجسادكم شعرة إنسانية واحدة .

لوّح (جاك) بسبابته في وجهه ، وهو يقول غاضبًا :

- لو أن لك ابنًا مثلي ، لحرصت على أن تجعل العالم آمنًا من أجله .

قال (أدهم) بنفس الصرامة :

- وكيف ؟! بأن أقتل كل من يعارضه ؟! أهذا هو الأمان من منظوركم .. معذرة يا هذا ، لو أن الدم هو ما ستتركه لابنك ، فربما يكون آمنًا ، ولكن ليس آدميًا .

فقد (جاك) أعصابه تمامًا عند هذه النقطة ، وكأنما مس حديث (أدهم) وترًا شخصيًا في أعماقه ، وصاح :

- وماذا تعرفون أنتم عن الآدمية أيها العرب ؟! ماذا تعرفون عن الحرية والديمقراطية والعدل والمساواة ؟! إنكم مجرد عنصريين ، متعصبين ، انتحاريين .. الواحد منكم ينسف نفسه وسط جنودنا ، ولا يبالي بحياته .. كيف نتعامل معكم إذن ؟!.. بالعدل والهدوء ؟!

قال (أدهم) في غضب :

- وكيف تريدون أنتم أن نتعامل معكم ؟! بالخنوع والخضوع والذل ، والاعتراف بأنكم السادة ونحن العبيد ؟! لا يا رجل .. لا وألف لا .. أنتم العنصريون المتعصبون الهمج .. كل ما في الأمر هو أنكم تملكون أسلحة قوية ، للتعبير عن عنصريتكم وتعصبكم .. وحياة الواحد منا لا تساوي عندكم شيئًا ، إلا لو كانت تساوي معها حياتكم .

هتف (جاك) :

- ولهذا سنسحقكم .. سنسحق كل واحد يرفع رأسه منكم .. سنسحقك ونسحق رفاقك كلهم .

وحمل صوته كل شماتة الدنيا ، وهو يتابع متحديًا :

- هل كنت تتصور أنك عبقري ، وأنك قد أنقذت رفاقك بتضحيتك الساذجة هذه .. هراء .. لقد انطلقوا بطائرة (جاكسون) ، وأطلقنا خلفهم مقاتلتين قويتين ، مزودتين بصواريخ ذاتية التصويب .

انعقد حاجبا (أدهم) في شدة ، فتابع (جاك) بنفس اللهجة الشامتة :

- وبينما ننتظر الإمدادات ، ستكون مقاتلاتنا قد أسقطت طائرة (جاكسون) ، ونسفتها نسفًا ، بكل ما عليها من رفاقك ، قبل حتى

أن تتدخَّل دولتك لمد يد العون لهم ، أما أنت ، فهأنتذا فى قبضتنـا ، مقيد المعصمين بأغلال فولاذية ، وكل مسدساتنا مصوبة إلى رأسك ، والهليوكوبتر فى الطريق ، و ..

قبل حتى أن يتمَّ عبارته ، تحرك (أدهم) فى سرعة وقوة ، وهوى بجبهته على رأس (جاك) ، فى قوة ارتجّ لها مخ هذا الأخير ، فى نفس اللحظة التى انزلق فيها (أدهم) ، فى خفة مذهلة ، وارتفعت قدمه بزاوية شبه مستحيلة ، لتضرب أحد الرجلين إلى جواره ، ثم يميل رأسه بضربة عنيفة ، ليضرب رأس الآخر ..

كل هذا حدث فى ثانية واحدة أو أقل ، وعندما استدار سائق السيارة بمسدسه لمواجهته ، فوجئ بأن قيود معصميه قد انتقلت ، من خلف ظهره إلى ما أمامه ، وكأنما ثنى جسده كله عبر ذراعيه ، فى سرعة خرافية ، وفوجئ بضربة كالقنبلة من قبضتى (أدهم) المضمومتين ، على فكه مباشرة ..

كان (جاك) هو الوحيد ، الذى بقى واعيًا ، وإن غامت الدنيا أمام عينيه ، فراح يبحث عن مسدسه فى حزامه ، وهو يهتف :

ـ لن تفلت منا .

كان كل شىء يبدو أمامه مهتزًا ، غائمًا ، واستطاع بصعوبة أن يميِّز (أدهم) ، الذى انتزع المسدس من يده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا تعبث بالأسلحة النارية .

ثم لطمه على وجهه ، مضيفًا :

ـ هذا يسبِّب بعض المشكلات قليلاً .

قاوم (جاك) تلك الغيبوبة ، التى تهاجم عقله فى قوة ، وهو يقول فى تهالك عصبى :

ـ لن يمكنك الإفلات .. السيارتان الأخريان حولنـا ، وسيكتشف ركابهما ما حدث فى سرعة ، والهليوكوبتر فى الطريق ، وعلى متنها خمسة آخرون مسلحون بالمدافع الآلية ، ولن يمكنك أن تذهب بعيدًا بقيود معصميك هذه .

فوجئ بـ (أدهم) يناوله الأغلال الفولاذية ، قائلاً :

ـ أنت على حق .. لا بد من التخلُّص منه إذن .

اختلط ذهوله بدواره ، وشعر ببرودة الأغلال الفولاذية بين أصابعه ، فغمغم فى صعوبة :

ـ ولكن كيف .. كيف ؟

وهوت على فكه لكمة أخرى ، أفقدته ما تبقى له من وعى تمامًا ..

كان ركاب السيارتين الأخريين قد رصدوا ما حدث بالفعل ، فوثبوا من سيارتيهما ، وانطلقوا نحو سيارة (أدهم) ، الذى دفع سائق السيارة خارجها ، وهو يقول فى ضجر :

ـ كم أكره أن يتكرَّر المشهد نفسه مرتين ، فى مهمة واحدة !

وبسرعة مدهشة ، أدار محرك السيارة ، وانطلق بها ..

ومن خلفه ، أطلق رجال المخابرات الأمريكية النار على السيارة ، وهتف أحدهم فى غضب :

ـ كيف يفعلها هذا الشيطان ، فى كل مرة ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهرت الهليوكوبتر فى السماء ، فالتقط جهاز اتصاله اللاسلكى بسرعة ، وهتف بقائدها عبره :

ـ الفريسة تفرّ فى السيارة رقم واحد .. أوقفها بأى ثمن .

جهّز الطيار أسلحة الهليوكوبتر ، وهو يدور بها لمطاردة سيارة (أدهم) ، متسائلاً :

ـ وماذا عن حياتها ؟!

كانت الأوامر تقتضى إعادة (أدهم) حيًا (بقدر الإمكان) ؛ لذا ، فوفقًا لتلك الكلمة الأخيرة ، هتف رجل المخابرات :

ـ المهم أن توقفها .

وكان هذا يعنى إيقاف (أدهم صبرى) ، ومنعه من الفرار ..

وبأى ثمن ..

حتى ولو كان الثمن قتله ..

بأبشع وسيلة ممكنة ..

لذا ، فوفقًا للأوامر ، انطلقت الهليوكوبتر خلف سيارة (أدهم) ، وجهّز قائدها صواريخها ، و ...

وأطلقها ..

مباشرة ..

* * *

وفقًا لكل النظم المتبعة ، فى المخابرات العامة المصرية ، اعتاد مديرو الإدارات الفرعية ، ونواب المدير ، ورؤساء الأقسام الفنية ، الصعود إلى مكتب الوزير ، لعرض تطورات أى موقف ساخن ، فى لحظات الأحداث الرئيسية ..

لذا ، فقد كانت دهشة الرجال عارمة ، عندما فوجئوا بالوزير بنفسه يأتى إليهم ، متسائلاً :

ـ كيف يدور الموقف فى (أمريكا) ؟!

شدّ الرجال قاماتهم فى احترام ، وأجاب أكبرهم فى سرعة :

ـ إننا نتتبع الموقف لحظة بلحظة يا سيدى ، ولقد أرسلنا فريق مكتبنا هناك ، إلى حيث أشار سيادة العميد ، فى اتصاله الأخير .

تساءل المدير فى اهتمام :

ـ هل فهمتم ما يحاول فعله ؟!

أجابه نائبه :

ـ بالتأكيد يا سيدى .. واتخذنا كل الإجراءات اللازمة لذلك

تساءل المدير :

ـ وماذا عن الطائرة الخاصة ؟!

أجابه فى احترام :

ـ إنها تنتظر وصولهم ، لتقلع إلى هنا فورًا ياسيدى .

سأله المدير :

ـ وهل اتخذتم الإجراءات اللازمة ؟!

أومأ النائب برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ كل شىء يسير وفقًا للخطة ياسيدى .

تنهد المدير ، قائلاً :

ـ عظيم .. بقى إذن أن يصلوا إلى الهدف .

مرة أخرى ، وافقه نائبه بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ وأن يصلوا سالمين .

زفر المدير مرة أخرى ، وقال :

ـ نعم .. أن يصلوا سالمين .

وشعر الجميع عند هذه النقطة بالقلق ..

قلق بلا حدود ..

أو مبررات ..

* * *

انطلقت طائرة (جاكسون) فى مسار واضح ، عبر سماء الولايات المتحدة الأمريكية ، فى طريقها الى (نيويورك) .

وعلى الرغم من أن مسارها قد تم تسجيله ، فى هيئة الفضاء والطيران ، وتم الحصول على التصاريح اللازمة بشأنه ، فقد ظهرت فى السماء فجأة مقاتلتان أمريكيتان قويتان ، من طراز (ف ــ 15) ، وأحاطتا بالطائرة ..

وبالنسبة للقواعد المتبعة ، فى كل نظم الطيران ، فى العالم أجمع ، كان ينبغى أن يتم اتصال لاسلكى مباشر ، بين المقاتلتين والطائرة المدنية ، حتى لو كانت تلك الأخيرة قد تجاوزت مسار الطيران المسموح به ، أو ولجت منطقة محظورة ..

ولكن هذا لم يحدث ..

بل ، ولم تحاول حتى المقاتلتان القيام بمناورة تحذيرية ..

لقد انقضتا على الطائرة المدنية مباشرة ، وقال قائد إحداهما ، عبر اتصال لاسلكى مباشر بالقيادة :

- تم رصد الهدف ، ونطلب الأوامر بالتعامل معه .

أتاه الجواب فورًا :

- تعامل معه دون إنذار ..

وهنا ، جذب الرجل عصا القيادة ، وضغط زرًا أحمر .

ومن كل طائرة انطلق صاروخ ..

ولوهلة ، تقاطع مسار الصاروخين ، قبل أن يتجها مباشرة نحو طائرة (جاكسون) الخاصة ..

وكان الانفجار مدويًا عنيفًا ..

وقبل حتى أن يصل الحطام إلى الأرض ، كان قائدا المقاتلتين ، كمحترفين ، يدركان أنه بات من المستحيل أن يبقى فيها أى شيء ..

أو أى شخص ..

على الإطلاق ..

* * *

« تيـا ؟! »

هتفت الزعيمة بالاسم فى دهشـة بالغـة ، لم تلبث أن تحولت إلى ارتياح فرح ، وهى تضيف :

- كيف نجوت ؟!

بدت الصينية الحسناء هادئة متماسكة ، على الرغم من الإنهاك والإرهاق الواضحين على وجهها ، وهى تقول :

- كنت تعرفين ما أواجهه إذن ؟!

أجابتها الزعيمة ، وهى تشعل واحدة من سجائرها الطويلة :

- مدير المخابرات المركزية شخصيًا أبلغنى ما حدث .

غمغمت (تيا) ، وهى تلقى جسدها الضئيل على مقعد قريب وثير :

- لقد نجوت بأعجوبة .

سألتها الزعيمة فى لهفة :

- وماذا عن (أدهم) والآخرين ؟!

أشارت (تيا) بذراعها ، مجيبة :

- لقد نجوا من مزرعة ذلك الحقير (جاكسون) على الأقل .

سألتها الزعيمة فى حذر :

- وماذا عنه هو ؟!

تألقت عينا (تيا) ، وتراقصت ابتسامة متشفية على شفتيها ، وهى تقول :

- كان يشعر بصداع شديد ، وأدركت أن هذا بسبب رأسه الغبى ، الذى لا يستحقه جسده القوى .

عقدت الزعيمة حاجبيها ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى توتر ، فتابعت (تيا) فى تلذذ مرضى :

- ففصلتهما عن بعضهما البعض .

نطقتها فى استمتاع أثار توتر الزعيمة ، على الرغم من كل ما أراقته من دماء فحاولت بدورها أن تسترخى على مقعدها ، وهى تسألها :

- وكيف وصلت إلى هنا ، دون أن أشعر بك ؟!

أشارت (تيا) بسبابتها ، مجيبة :

- إننى أملك كل شفرات المرور .. أنسيت هذا ؟!

أجابتها مستعيدة صرامتها :

- ولكن ينبغى أن تخبرينى بقدومك أولاً .

تنهدت (تيا) ، وتركت جسدها يسترخى على المقعد الوثير ، قائلة :

- سأحرص على هذا ، فى المرات القادمة .

بدا لحظة وكأنها ستضيف عبارة ما ، ثم لم تلبث أن ابتلعتها ، وهى تسأل فى اهتمام :

- ولماذا عن المصريين ؟!

أشارت الزعيمة إلى شاشة الاتصال ، قائلة :

- مازلت أنتظر الجواب !

أدهشها أن بدت (تيا) شديدة الاستمتاع ، وهى تقول :

- عظيم .. دعينا ننتظره معًا .

كانت أول مرة تتعامل معها فيها (تيا) ، دون أية حواجز بينهما ، ولكنها عزت هذا إلى حالة الإرهاق الشديدة ، التى تمر بها ، فاكتفت بأن عقدت حاجبيها ، ورمقتها بنظرة صارمة ، وقبل أن تقول شيئًا ، صدر أزيز من شاشة الاتصال ، فاعتدلت فى سرعة ، واتخذت هيئة صارمة قاسية ، و ...

« انتهى الأمر تقريبًا .. »

اقترن صوت مدير المخابرات الأمريكية بصورته ، التى ظهرت على شاشة جهاز الاتصال الخاص الكبيرة ، فتعقد حاجبا الزعيمة ، وقالت فى صرامة شرسة :

- ما الذى يعنيه هذا القول بالضبط ؟!

اتسعت الصورة ، قبل أن يجيبها ، فبدا أنه يقف داخل المكتب البيضاوى ، وإلى جواره وزير الدفاع ، يعدل منظاره فى عصبية ، ووزيرة الخارجية بنظراتها القاسية ، الغاضبة دومًا دون مبرر ،

فى حين أولاها الرئيس الأمريكى جانبه ، وكأنما يتحاشى مواجهتهـا ، وقال مدير المخابرات ، فى لهجة لم ترق لها :

- ربما يعنى أن اللعبـة كلها قد انتهت ، وأن الأمور ستعود أخيرًا إلى نصابها .

قالت فى صرامة :

- لهجتك لا تروق لى يا هذا .. هناك اتفاقات واضحة بينى وبينكم ، وأخرى كانت بينكم وبين مستر (X) السابق ، وكلها لو تـم نشرها على الملأ ، ستكون لها تداعيات عنيفة ، على الصعيدين السياسى والعسكرى أيضًا .

بدا أقل اهتمامًا ، وهو يقول :

- جميل أن حملت عبارتك (لـو) .

قفز القلق إلى أعماقها ، وبدا لها أن أربعتهم لا يتعاملون معها بنفس الخوف والرهبة السابقين ، مما يوحى بأنه هناك أمر خفـى ، جعلها تقول فى حدة :

- ما الذى تغيّر بالضبط ؟!

أجابتها وزيرة الخارجية فى سرعة :

- أنت .

ألقت سيجارتها أرضًا فى عصبية ، وهى تقول مستنكرة :

- أنـا ؟!

أجابتها وزيرة الخارجية فى شماتة :

- نعم .. لقد عرفنا أخيرًا من أنت .

التقى حاجبا الزعيمة ، واختلست نظرة إلى مساعدتها (تيا) ، التى بدت مسترخية أكثر مما ينبغى ، أو ربمـا أكثر حتـى ممـا يحتمل الموقف ، ووزير الدفاع الأمريكى يقول بعصبيته المعهودة :

- عمليات التجميل ، ووسائل التعمية التى استخدمتها ، قد أربكتنا بعض الشىء ، ولكننا كشفنا هويتك فى النهاية .

قالت فى عصبية ، وهى تشعل سيجارة أخرى :

- هذا لا يصنع فارقًا .

أجابها مدير المخابرات ، فى لهجة حملت نبرة تحد واضحة :

- بل يصنع فارقًا كبيرًا .

أشارت بسبابتها نحو شاشة الاتصال ، قائلة فى حدة :

- معرفة هويتى ليست المشكلة الأولى أمامكم .. فمازلت أسيطر على اللعبة كلها .. رجالى ما زالوا منتشرين فى كل مكان فى العالم ، ولدينا من القـوة ما يكفى لمواجهتكم جميعًا ، حتى لو كنتم أقوى دولة فى العالم .

اعتدل الرئيس يواجهها ، وهو يقول :

ـ لا قيمة للأفعى دون رأسها .

وانعقد حاجباها أكثر وأكثر ..

فما الذى يعنيه قوله هذا ؟!

عبارته تعنى أنهم سيقضون عليها شخصيًا ..

أو أنهم قد توصّلوا إليها ..

وهذا مستحيل !

التكنولوجيا التى تستخدمها ، تفوق أقصى ما توصلوا إليه ..

ونظم اتصالاتها مؤمَّنة تمامًا ..

مهما بلغت براعة رجالهم ، لن يمكنهم تعقبها قط ..

وحتى لو حاولوا ، سيرتطمون حتمًا بواحدة من محطات الاتصال الفرعية ، التى ستنذرها لقطع الاتصال ، قبل أن يتفرعوا إليها ..

كل شىء تم إعداده بمنتهى الدقة ..

وكل شىء محسوب بالنانوميتر(*) ..

(★) النانوميتر : مقياس حديث دقيق ، يبلغ واحدًا على مليار من المتر ، ويعتبر أصغر وحدة قياس معروفة ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، ويستخدم فى تكنولوجيا المنمنمات ، المعروفة باسم (نانو تكنولوجى) .

كل شىء ..

وكل لحظة ..

ولكن ماذا عن ثقتهم ، وعباراتهم ..

ماذا لديهم ؟!

ما الذى تغيّر ؟!

ثم فجأة ، برقت الفكرة فى رأسها ..

وبحركة حادة ، التفتت إلى (تيا) ، التى بدت شديدة الاسترخاء ، تتطلع إليها بنظرة خاوية ، ثم عادت ببصرها إلى شاشة الاتصال ، قائلة فى صرامة شديدة :

ـ لو أنكم تتصورون أنكم ستربحون المعركة ، فأنتم واهمون تمامًا .

سألها مدير المخابرات ، فى لهجة استفزتها ، لما تحويه من لمحة ساخرة :

ـ أتتصورين هذا حقًا ؟!

ضغطت زر الاتصال فى حدة ، فانطفأت الشاشة ، وانقطع الاتصال ، وهى تلتفت مرة أخرى إلى (تيا) ، قائلة فى شراسة :

ـ أنت ؟

سألتها (تيا) ، فى لا مبالاة مدهشة :

ـ أنا ماذا ؟!

واجهتها الزعيمة ، قائلة فى غضب :

ـ أنت الطابور الخامس(*) ، الذى خانتى .

اعتدلت (تيا) فى هدوء ، لا يوحى قط بالمفاجأة ، على الرغم من رنة التساؤل المستنكر فى صوتها ، وهى تقول :

ـ أنـا ؟!

صاحت بها الزعيمة ، وهى تسحب مسدسها :

ـ نعم .. أنت .. الثقة التى يتحدث بها مدير المخابرات الأمريكية تعنى أنه قد كشف الكثير ، أو أنه لم يعد يخشانى على الأقل ، وهذا يعنى بالتبعية أنه لم يكشف من أنا فحسب ، وإنما عرف كيف يصل إلىّ أيضًا ، ومن بين كل معاونىّ ، أنت وحدك تعرفين كل شفرات الدخول ، والوصول إلى هنا .. أنت وحدك ..

قاطعتها (تيا) فى حزم ، وهى تنهض من مقعدها :

ـ مهلاً .. لماذا أخونك ؟!

صاحت بها الزعيمة :

ـ للحصول على فرصة أفضل ، أو للخروج من تبعيتى إلى حالة من الاستقلال الشخصى .

ابتسمت (تيا) ، ورفعت أحد حاجبيها وخفضته ، قبل أن تعقد ساعديها أمام صدرها ، قائلة :

(*) الطابور الخامس : مصطلح أطلقه (أدولف هتلر) ، خلال الحرب العالمية الثانية ؛ لوصف كتيبة جواسيسه ، المنتشرة فى أرجاء (أوروبا) ، والتى كانت تعمل على تزويده بكافة المعلومات ، فى قلب العدو ، مما جعلها أشبه بجزء خفى من جيشه .

ـ لقد أقنعتنى .

صوبت الزعيمة مسدسها نحو رأس (تيا) ، وهى تقول فى غضب :

ـ هذا اعتراف آخر منك .. لقد خنتنى من أجلهم .. خنت زعيمتك وولية نعمتك ، من أجل إدارة أمريكية زائلة .

هزت (تيا) رأسها نفيًا فى هدوء ، ودون أن يبدو عليها أدنى أثر للخوف ، وهى تقول :

ـ مستحيل أن أخونك من أجلهم .

ثم أشارت بسبابتها ، مكملة بابتسامة جذلة :

ـ ولكننى أفعلها من أجله .

ومع إشارتها ، ظهر شخص ما خلفها ، وهو يقول :

ـ مرحبًا يا عزيزتى .. مضت فترة طويلة ، منذ التقينا آخر مرة .

وتراجعت الزعيمة كالمصعوقة ، وانتفضت كل ذرة من كيانها فى عنف ..

فقد كان ذلك الواقف أمامها هو ألد أعدائها ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) .. شخصيًا ..

* * *

7ـ رجـل .. وامـرأة ..

لم تكد تلك الطائرة الخاصة تهبط في ذلك المطار الصغير ، في ضواحي (فرجينيا) ، حتى أسرع إليها طاقم مـن الرجـال ، يتميزون بملامح شرقية واضحة ، وأحاطوا بها علـى نحو تام ، وانطلقت نحوها سيارة كبيرة ، تحمـل لوحـات دبلوماسية ، حتى توقفت أسفل سلمها مباشرة ، وخرج من تلك السيارة رجل ممشوق القوام ، صعد في درجات سلم الطائرة في خطوات نشطة سريعة ، ولم يكد يدخلها ، حتى اعتدل في احترام ، وقال في لهجة قوية :

ـ حمدًا لله على سلامتكم أيها السادة .

غمغمت (منى توفيق) :

ـ أشكرك .

ثم سألته في لهفة :

ـ كيف حال (أدهم) ؟!

اندفع (قدرى) من خلفها ، يسأل :

أهو بخير ؟!

أجابهما الرجل في سرعة :

ـ ليست لدى أية فكرة يا سادة .. الأوامر التى وصلتنى من (القاهرة) هي أن أنتظر هذه الطائرة الصغيرة ، التي ستقلكم سرًا ، وأن أحملكم في سيارة دبلوماسية إلى (واشنطن) العاصـمة ، حيث سينتظركم سيادة السفير شخصيًا ، وسيصحبكم إلى طائرة مصرية خاصة ، تحملكم فورًا إلى (القاهرة) ، وليسـت لدى أية معلومات بشأن سيادة العميد .

تساءل (شريف) :

ـ وهل سنغادر الولايات المتحدة الأمريكية من دونه ؟!

غمغم الرجل :

ـ إنها الأوامر .

همّت (منى) بقول شيء ما ، ولكن (قدرى) استوقفها ، قائلاً في حزم مجهد :

ـ نعم يا (منى) .. إنها الأوامر ، وعلينا طاعتها ، حتى لو أردنا أن تكون تضحية (أدهم) مجدية .

وحاول أن يخفّف من توتر الموقف ، وهو يضيف :

ـ ثم إن هذا لن يضيف جديدًا .. لقد نفذنا تعليماته السرية ، حتى هذه اللحظة .. كان يعلم أن الاتصال اللاسلكى سيكون مراقبًا ، فمنحك كلمة السر ، التي اتفق عليها معك ، في ذلك المخبأ .

تدخلت (ريهام) ، قائلة :

ـ هذا صحيح .. لقد قمنا بتشغيل الطيار الآلى ، فى طائرة (جاكسون) ، بعد أن وصلنا منطقة الجبال ، وقفزنا منها بالمظلات لنجد رجال مكتبنا فى (تكساس) بانتظارنا .

ربّت (قدرى) على كرشه ، وهو يقول ، متصنعًا المرح :

ـ تصوّرى .. أنا بكرشي هذا ، أقفز من طائرة بمظلة !! لقد تصوّرت لحظة أن المظلة لن تحتمل ثقلي ، وأننى سأغوص فى الأرض ، كما يحدث فى أفلام الرسوم المتحركة .

تنحنح رجل السفارة ، وقال :

ـ معذرة يا سادة ، ولكن التوقيت الذى حددته (القاهرة) ، لا يحتمل هذا الجدل .

قال (شريف) :

ـ أنت على حق .. هيا بنا .

بدت (منى) حائرة مضطربة ، وهى تقول :

ـ ولكن ..

لم تستطع إتمام عبارتها ، فكتمت مشاعرها فى أعماقها ، وسارت مع الباقين إلى السيارة الكبيرة ، ذات الأرقام الدبلوماسية ..

وبينما انطلقت بهم السيارة ، كانت أفكارها ومشاعرها كلها تنطلق خلف (أدهم) ، مع سؤال واحد ..

تُرى كيف هو الآن ؟!

هل نجا من رجال المخابرات الأمريكية ؟!

هل قتلها ، هل سيعود إليها حيًّا ؟!

هل .....؟!

* * *

لدقيقة كاملة تقريبًا ، ظلّت الزعيمة تحدق ذاهلة فى (أدهم) ، الذي وقف عند باب حجرتها الرئيسية ، فى مقرها السرى هادئا واثقًا ، عاقدًا ذراعيه أمام صدره ، يبتسم ابتسامة استفزت كل ذرة من مشاعرها ، فى حين غمغمت (تيا) :

ـ أليس وسيمًا بحق ؟

منحها (أدهم) ابتسامة هادئة ، ثم عاد ببصره إلى الزعيمة ، وهو يقول :

ـ ما صنعته بملامحك لم يفسد جمالك كثيرًا يا عزيزتى (سونيا) .

انعقد حاجبا (سونيا جراهام) فى شدة ، فى حين تابع هو :

ـ وحتى موتك الزائف ، لم ينتزع منك نضارة الحياة(*) .

(*) راجع قصة (الورقة الأخيرة) المغامرة رقم (144) ..

انحلّت عقدة لسانها ، وهي تغمغم :

ـ كيف .. كيف عرفت ؟

هزّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ لم أكن واثقًا في البداية ، خاصة وأن مصرعك المفتعل كان بارعًا بحق ، فقد كان هناك شاهد ، كما أن عينة الحمض النووي أثبتت هذا .. كل شيء كان شديد الدقة ، لولا أن قمت باستبدال عينة الحمض النووي الخاصة بي أيضًا .. عندئذ قفزت الفكرة إلى رأسي ، وأعدت ترتيب الأحداث ، وفهمت اللعبة كلها ، فقبل تدبير حادث موتك المزعوم ، قمت باستبدال عينة حمضك النووي ، بعينة بديلتك ، بحيث تم فحص أشلاء جثتها ، وإثبات أنها جثتك أنت .

غمغمت (سونيا) ، وهي تشعل سيجارتها في توتر :

ـ إنها مشكلتهم ، ما داموا يثقون في أجهزة الكمبيوتر ، بأكثر مما يثقون في عقولهم .

قال مكملاً ، وكأنه لم يسمعها :

ـ وما دام العالم كله يعتقد أن (سونيا جراهام) قد لقيت مصرعها ، فتلك التي ستسعى للسيطرة على العالم ستبدو مجرد زعيمة غامضة ، ومن لا تعرفه ، لا يمكنك مكافحته ، والجهاز الذي تستخدمينه لتغيير نبرات صوتك ، ساعد على إخفاء هويتك الحقيقية .

قالت في صرامة ، وهي تنفث دخان سيجارتها :

ـ إخفاء هويتي كلفني ثروة طائلة .. تغيير سجلات الحمض النووي ، محو ملفي كله من (الموساد) ، ومحو سجلات البصمات .. لا يمكنك أن تتصورَ كم هذا مرهق .

أشار بسبابته ، قائلاً :

ـ ومربح أيضًا .. لا تنس هذا .

رمقته بنظرة صارمة طويلة ، قبل أن تقول في عصبية :

ـ تتصورُ الآن أنك قد ربحت .. أليس كذلك ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا ما ستسفر عنه الدقائق القادمة .

قالت متحدية :

ـ حتى لو ساعدتك تلك الخائنة على الوصول إلى هنا .

غمغمت (نتا) في مرح :

ـ تقصدني أنا .

تجاهلتها مواصلة :

ـ فمازلت داخل مقري ، ووسط رجالي وحراسي ، ونظم أمني القوية ، وأنت ، مهما كنت ، مجرد شخص واحد .

قال في سخرية :

ـ حقًا ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وقالت :

ـ أعلم أنك تمتلك مهارات شتى ، وقدرات مدهشة ، ولكن لا تنس أنك هنا ، و ...

قاطعها (أدهم) فى سرعة :

ـ لست وحدى .

انعقد حاجباها فى تساؤل متوتر ، فتابع :

ـ من الواضح أنك ، على الرغم من تنظيمك القوية ، مازلت تجهلين الكثير عن ألاعيب السياسة والمصالح المشتركة يا عزيزتى .

غمغمت :

ـ هـراء .

ولكنه تابع :

ـ تلك المصالح ، هى التى جعلتنى منذ البداية أخوض تلك المهمـة ، سعيًا وراء منظمتك ؛ لأحمى الولايات المتحدة منك ومنها ، وهـى أيضًا التى جعلت جهـاز المخابرات الأمريكية يتعاون معى على الإيقاع بك ، ما دام هذا فى صالح الإدارة الحالية .

صاحت فى حدة :

ـ كاذب .. عميلى أخبرنى أنك حاولت الفرار من رجال المخابرات الأمريكية ، وأن طائرة هليوكوبتر تابعة لهم قد طاردتك ، وأمطرت سيارتك بالصواريخ ، وكلهم رأوها مشتعلة ..

هزّ كتفيه مرة أخرى ، وقال :

ـ رأوا سيارة مشتعلة ، ولم يرونى أحترق داخلها حتى الموت .. كل ما حدث هو أننا كنا نعرف أن لك جاسوسًا وسط رجـال المخابرات الأمريكية ؛ لذا كان من الضرورى أن يسير كل شىء كما لو أننا نتقاتل .. والواقع أننا كنا كذلك ، حتى أبرمت حكومتى الصفقة مع حكومتك ، التى وافقت علـى التعاون ، وأصدر مدير المخـابرات عنـدكم أمرًا بعـدم قتلى ، بعد أن قفزت من السيارة المصفحة بالفعل .

قالت فى حدة :

ـ هذا يبدو أشبه بفيلم من أفلام الدرجة الثالثة .

قال فى هدوء :

ـ الواقع أنه لم يكن كذلك ، حتى اللحظة الأخيرة ، ولكن الفكرة أتت إلى ذهنى ، عندما كنت داخل سيارة مصفّحة ، محاطًا بجيش من الأعداء ، فقد تساءلت : أمن الممكن أن توافق الحكومة الأمريكية على أن أسلمك لها ، مقابل عودتى إلى (القاهرة) .

قالت فى عصبية :

ـ وكيف كنت تتوقع أن تصل إلىّ ؟!

رفعت (تيا) يدها ، قائلة :

ـ هاى .. لقد نسيتنى .

حمل صوتها حقد الدنيا كلها ، وهى تقول :

ـ خسرت الكثير ، عندما انتقلت إلى المعسكر الاخر يا (تيا) .

مطّت (تيا) شفتيها ، وقالت :

ـ من يدرى ؟! ربما ربحت الكثير .

أجابتها فى غضب :

ـ خسرت حياتك على الأقل .

قرنت قولها بحركة سريعة ، أمالت خلالها فوهة مسدسها نحو الصينية الحسناء ..

وأطلقت النار ..

ولكن (تيا) لم تكن بالهدف السهل ..

لقد وثبت جانبًا ، ثم قفزت إلى أعلى ، وتحركت بخفة ومرونة مذهلتين ، فطار مسدس (سونيا) ، قبل أن تعود على قدميها ..

واحتقن وجه (سونيا) فى شدة ، فى حين أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يقول :

ـ إنها حياة الدعة يا عزيزتى (سونيا) .. لقد اعتدت الزعامة والرفاهية ، فأتى من ينتزع منك عرش التفوق .

مع آخر حروف كلماته ، دوت صفارات إنذار قوية فى المكان ، واضيئت عدة شاشات دفعة واحدة ، وبدت عليها كلها قوات الجيش الأمريكى ، وهى تقتحم المقر ، من نقاط عديدة ، فأضاف (أدهم) :

ـ وعرش القوة أيضًا .

احتقن وجه (سونيا) أكثر ، وهى تدير عينيها فى شاشات الرصد ، قبل أن تترك جسدها يسقط على مقعد قريب ، قائلة :

ـ ليس بعد .

لم تكن عبارتها قد اكتملت بعد ، عندما انقلب المقعد بحركة عجيبة ، ليختفى جسدها فجأة فى الجدار خلفه ، ثم ينزلق لوح من الصلب من أعلى ، ليسد الجدار تمامًا ..

وبوثبة واحدة ، اندفع (أدهم) نحو الجدار ، وحاول أن يرفع حاجز الصلب ، هاتفًا :

ـ إلى أين يقود هذا بالضبط ؟!

أجابته (تيا) مرتبكة :

ـ لست أدرى !! إنها لم تخبرنى أى شىء عنه أبدًا .. لقد احتاطت منى أيضًا .

قال (أدهم) فى توتر :

ـ لا يمكن أن نسمح لها بالفرار ، بعد كل هذا .

وقفت (تيا) حائرة مرتبكة ، ثم هتفت فجأة :

ـ قطار الأنفاق .

استدار إليها (أدهم) ، هاتفًا :

ـ مـاذا ؟!

صاحت فى انفعال :

ـ لا ريب فى أن هذا يقودها إلى قطار مصفّح خاص ، كانت تحرص على بقائه أسفل المقر .. إنه يقع داخل نفق طويل ، يقود إلى نقطة لا يعلمها سواها .

صاح فى حزم :

ـ وأين مدخل ذلك النفق ؟

صاحت بدورها :

ـ اتبعنى .

راحت تعدو عبر ممرات المقر السرى ، وهو يعدو خلفها ، وأصوات القتال العنيف ودوى القنابل يصم آذانهمـا ، حتى بلغوا نفقًا طويلاً ، فهتفت (تيا) :

ـ ها هى ذى .. هناك .

كانت تشير بسبّابتها إلى عربة قطار صغيرة ، تنطلق على زوج من القضبان ، عبر ممر يمتدُّ إلى مرمى البصر ، فتلفت (أدهم) حولـه فى توتر ، قبل أن يقع بصره على عربة مماثلة ، فى ركن بعيد ، فهتف بـ (تيا) :

ـ لنخبرهم أن يتبعونا .

قالها ، وقفز فى العربـة الثانية ، وانطلق بها خلف عربـة (سونيا) ..

وفى عربتها ، كانت (سونيا) تشعر بحنق وغضب شـديدين ، تجاوزا حدود كل شىء ..

إنه هو ..

دائمًا هو ..

العالم كله كاد يخضع لها ، ويستجيب لمشيئتها ، حتى ظهر ..

لم تنجح فى هزيمته قط ..

لم تنتصر عليه أبدًا ..

كلما تصورت أنها قد فعلت ، يفاجئها فى اللحظة الأخيرة ، ليقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لا يمكن أن يحدث هذا فى كل مرة ..

مستحيل !

مستحيل !

مستحيل !

لن تهدأ حتى تهزمه ..

بل ولن تقتله ، حتى يشهد هزيمته بنفسه ..

عندما حطم أحلامها ، ونسف مخططاتها وجزيرتها ، سقط فى قبضتها ، وكان يمكنها أن تقتله ..

ولكن لا ..

لو فعلت ، لمات وهو منتصر ..

فائز ..

بطل ..

وليس هذا ما تستهدفه ..

لو مات منتصرًا ، سيتحول إلى أسطورة ..

أسطورة لن تموت أبدًا ..

لا بد إذن ولن يموت مهزومًا ..

مدحورًا ..

فاشـلا ..

خائبًا ..

وهذا ما لم تفلح فيه قط ..

وهذا ما يشعل غضبها ..

كل غضبها ..

كانت تعلم أنه يطاردها بالعربة الثانية ، إلا أنها لـم تبـال كثيرًا بهذا ؛ فهى تعلم جيدًا أن السرعـة القصوى للعربة لاتسمح لـه باللحاق بها أبدًا ..

ثم إنها تعرف أين ستذهب ..

لقد وضعت كل شىء فى الاعتبار ، حتى هزيمتها ..

هناك دومًا مسار بديل ..

ومخرج آخر ..

وهناك دومًا بداية جديدة ..

ومكان جديد ..

كل شيء يعاد بناؤه ..

كل شيء ..

إنها مسألة أموال ..

ورغبة ..

وإرادة ..

فى نفس اللحظات ، التى دارت فيها هذه الأفكار فى رأسها، كان (أدهم) يحاول أن يستحث عربته على الإسراع أكثر دون جدوى ..

المسافة التى تفصله عن عربة (سونيا) ثابتة طوال الوقت ..

والعربتان تنطلقان عبر نفق طويل ..

طويل ..

نفق يبدو وبلا نهاية ..

على الإطلاق ..

ولكن هناك نهاية له حتمًا ..

السؤال هو : ماذا يوجد فى نهايته ؟!

مـاذا ؟!

مـاذا ؟!

كانت عربة (سونيا) تنطلق ، حتى بلغت نهاية النفق ، حيث باب كبير ، توقفت العربة أمامه ، فوثبت منها (سونيا) ، وانطلقت عبره ، وأغلقته خلفها فى إحكام ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها عربة (أدهم) ..

وبدوره ، وثب من العربة ، واندفع نحو الباب ..

كان مغلقًا برتاج قوى ، ومن خلفه وقع قدمى (سونيا) ، وهى تعدو فى سرعة ..

وتلفت (أدهم) حوله ، بحثًا عن أية وسيلة ، للتغلُّب على ذلك الرتاج القوى .. ثم وثب داخل عربة (سونيا) ، وراح يبحث عن شيء ..

أى شيء ..

لم يكن هناك سوى ذراع السرعة ، فانتزعه من مكانه ، وعاد به إلى ذلك الرتاج القوى ..

فى نفس اللحظات ، كانت (سونيا) تهرع نحو هليوكوبتر خاصة ، وهى تغمغم فى سخط شديد :

ـ لن تفلت هذه المرة يا (أدهم) .. لن تفلت منى أبدًا .. ستدفع الثمن .. أقسم أن تدفع الثمن ..

قفزت داخل الهليوكوبتر ، وراحت تشغل محركاتها فى عصبية ، ثم ضغطت زر فتح السقف المتحرك فوقها .

بدا لها السقف ينفتح فى بطء شديد ، حتى إنها هتفت فى عصبية :

ـ هيا .. هيا ..

انفتح السقف بما يكفى ، فدارت مروحة الهليوكوبتر وراحت ترتفع بها ، و ...

وفجأة ، ظهر (أدهم) ..

كان قد تجاوز ذلك الرتاج القوى بوسيلة ما ، وها هو ذا يعدو نحوها ، بأقصى قدر من السرعة البشرية ..

وبكل قوتها ، جذبت (سونيا) عصا الهليوكوبتر ، التى ارتفعت ..

وارتفعت ..

وارتفعت ..

ولكن (أدهم) قفز عاليًا ..

كانت تعلم أنه يمتلك صلابة فولاذية ، وإرادة من حديد ، إلا أنها لم تشهدهما فى حياتها كلها ، مثلما شهدتهما فى تلك اللحظة ..

لقد ارتفعت الهليوكوبتر سبعة أمتار كاملة عن الأرض ، وبات من المستحيل أن تبلغها قفزة رجل واحد ..

ولكن (أدهم) فعلها ..

رغبته فى الإيقاع بـ (سونيا) ، فاقت كل قدرات البشر ..

حتى قدراته هو شخصيًّا ..

وفى مشهد رائع ، بدا كمن يطير فى الهواء ، وهو يشق فراغ القاعة الواسعة ، ويتعلق بالهليوكوبتر ..

واختل توازن الهليوكوبتر ، مع ذلك الثقل المفاجئ ، من جانب واحد ، ومالت على نحو مخيف ، وحاولت (سونيا) استعادة توازنها ، إلا أن (أدهم) تحرك كبهلوان حقيقى ، وانثنى جسده فى سرعة ومرونة ، ثم وثب وثبة أقل ما توصف به هو أنها مستحيلة ..

وأصبح داخل الهليوكوبتر ..

ومرة أخرى ، اختل توازن الهليوكوبتر .

وفى هذه المرة ، عجزت (سونيا) عن السيطرة عليها ، فمالت فى عنف ، وانزلقت فى الهواء نحو الجدار ..

وارتطمت المروحة به فى قوة ..

ومع ارتطامها ، تحطمت المروحة كلها ، وصرخت (سونيا) :

ـ ماذا فعلت أيها اللص ؟!

وهوت بهما الطائرة ، وهى تضيف فى ذعر :

ـ ستقتلنا معًا .

اصطدمت الطائرة بالأرض فى عنف ، وتحطم ما تبقى من مروحتها ، وسقط جسد (أدهم) خارجها ، وتدحرج على الأرض فى قوة ، قبل أن يرتطم بالجدار ..

ولم تشعر (سونيا) ، فى حياتها كلها بالغضب ، مثلما شعرت بـه فى تلك اللحظة ..

لقد كانت قد أفلتت تقريبًا ، عندما ظهر هو ..

وكما يفعل فى كل مرة ، أفسد الأمر ..

أفسده تمامًا ..

كان حزام مقعدها قد أنقذها مـن السقطة ، وإن مـال جسـدها على نحو مؤلم ، فحلت الحزام ، ودفعت جسدها خارج الهليوكوبتر ، وغضبها يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

ثم رأته هناك ..

كان مصابًا ، وملقى عند الجدار ، يحاول النهوض فى صعوبة ..

وفى حركة غاضبة ، سحبت المسدس الاحتياطى من الهليوكوبتر ، وتقدمت نحوه ، قائلة :

ـ قديمًا ، أنقذت حياتك ، حتى لا تموت منتصرًا ، ولكننى لن أكرّر هذا الخطأ مرة ثانية .

كـان مسدسـها مصوبًـا إلـى رأسـه ، والـدوار يكتنفـه بشـدة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سألها فى صرامة :

ـ أين ابنى يا (سونيا) ؟! إنه على قيد الحياة .. أليس كذلك[*] ؟!

(*) راجع قصة (النهاية) .. المغامرة رقم (150) ..

أجابته فى شراسة :

ـ (أدهم) ابنى أنا يا (أدهم) ، ويجهل حتـى أنك أبـوه ، ولـن أخبره هذا قط[*] .

غمغم :

ـ لن يبقى معك .

سحبت إبرة مسدسها ، قائلة :

ـ إنه معى بالفعل ، وأنت ستلقى مصرعك الآن ، ولن تراه أو يراك أبـدًا .

حمل صوته صرامة الدنيا كلها ، وهو يقول :

ـ ابنى يا (سونيا) .

قالت بكل غضب الدنيا :

ـ وداعًا يا (أدهم) .

ودوت الرصاصة فى المكان ..

رصاصـة تنطلق من مسدس (جاك لوريل) ، لتطيـح بمسدس (سونيا) ، قبل أن يقتحم رجال الجيش الأمريكى المكان ، ويصوبـوا إليها أسلحتهم ، و(جاك) يهتف :

ـ انتهت اللعبة أيتها الزعيمة .

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) المغامرة رقم (84) ..

علا وجه (سونيا) يحتقن بشدة ، وتطلّعت إلى الأسلحة المصوّبة إليها فى غضب ، فى حين أسرع (جاك) إلى (أدهم) ، متسائلاً :

- أنت بخير ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وغمغم :

- تصوّرتك ستحقد علىّ لما فعلته بك .

أجابه (جاك) ، وهو يعاونه على النهوض :

- إننى كذلك !

ثم ابتسم ، مضيفًا :

- ولكن إعجابى بك يفوق حقدى بالتأكيد .

ولم يعلّق (أدهم) على عبارته ، وإن تابع ببصره رجال الجيش والمخابرات الأمريكية ، وهم يقتادون (سونيا) بعيدًا ، وهى تقول فى مقت :

- إنه ليس الفصل الأخير يا (أدهم) .. ثق فى هذا .

وكان هذا ما يراوده بالفعل ..

إنه ليس الفصل الأخير ..

على الإطلاق .

★ ★ ★

8- ختـــام ..

« انتهت اللعبة أخيرًا .. »

نطق الرئيس الأمريكى العبارة فى ارتياح ، وهو يحاول الاسترخاء فى مقعده الكبير ، داخل المكتب البيضاوى ، ثم تابع فى حماس :

- فعلى الرغم من كل ما عانيناه ، فى الأسابيع الأخيرة ، انتهى الأمر بربح أكيد ، فقد تخلصنا من مستر (X) و(سونيا) حقًا ، ولم يعد هناك ما يهددنا .

تردّد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول :

- لا يمكننا الجزم .

اعتدل الرئيس فى مقعده متوترًا ، وقال وزير الدفاع فى عصبية :

- إنها فى قبضتنا .. أليس كذلك ؟!

أجابه مدير المخابرات :

- نعم .. مستر (X) و(سونيا) فى قبضتنا ، ولكننا لم ننته استجوابها بعد ، ولم نحصل على كل ما لديها حتى الآن ، وربما ...

قاطعته وزيرة الخارجية فى حدة :

- لا يوجد ربما .. إنها لن تفعل شيئًا ، وهى فى قبضتنا .

صمت مدير المخابرات لحظة ، ثم تنهد ، قائلاً :

ـ أتعشم هذا .

تبادل الثلاثة نظرة متوترة ، قبل أن تقول الوزيرة فى حزم :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. أظن أن اللعبة قد وضعت أوزارها أخيرًا .. لقد استعدنا سيطرتنا على كل الأمور .

غمغم وزير الدفاع :

ـ وخسرنا ذلك المصرى ورفاقه .

قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ ما ربحناه منه يفوق خسارتنا له ألف مرة .. ثم إنه خصم شريف على الأقل .

سأله الرئيس :

ـ هل تعتقد أننا سنراه مرة أخرى ؟!

تردد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول :

ـ هذا يتوقف على ..

رمقته وزيرة الخارجية بنظرة صارمة ، جعلته يبتر عبارته دفعة واحدة ، ثم يغمغم :

ـ كلا .. لا أعتقد أننا سنراه مرة أخرى .

سأله وزير الدفاع فى قلق :

ـ وماذا عن (أميجو ساندو) .. أأنت واثق من هويته ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد حسمت الأمر بوسيلة لا تقبل الشك .. ودعت السيد (أدهم صبرى) فى المطار ، ثم ذهبت فورًا لمقابلة (أميجو ساندو) .

سألته وزيرة الخارجية فى لهفة :

ـ وهل كانت مقابلة مثمرة ؟!

أجابها فى حماس :

ـ للغاية .. لقد استقبلنى الرجل بنفسه ، وعرض علىّ شريحة جديدة ، تنتجها مصانعه ، وطلبت منه أن يقدّم لنا عرضًا خاصًا ، و ...

قاطعه الرئيس فى حزم :

ـ إذن فهو مؤيّد لنا .

أجابه وزير الدفاع :

ـ وأكبر مورّد إليكترونيات يا فخامة الرئيس .

تنهّد الرئيس فى ارتياح ، وقال :

ـ عظيم .

ثم تراجع فى مقعده ، واستعاد صرامة وحزم منصبه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ يمكننا إذن أن نغلق ذلك الملف تمامًا .

أجابته وزيرة الخارجية فى سرعة :

ـ بالتأكيد يا فخامة الرئيس .

وتمتم وزير الدفاع :

ـ نعم .. بالتأكيد .

أما مدير المخابرات ، فلم ينبس ببنت شفة ..

فعلى الرغم من كل ما يبدو ، كان لديه شعور غامض ، بأن اللعبة لم تنته..

ليس بعد ..

أو ليس الآن ..

على أقل تقدير ..

* * *

بكل حرارة ، استقبل مدير المخابرات العامة المصرية (أدهم صبرى) فى مكتبه ، وربّت على كتفيه ، قائلاً :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا بطل ، ومرحبًا بعودتك إلى الصفوف .

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ أشكرك يا سيدى ، ولقد قدمت تقريرًا شاملاً عن تلك الفترة التى ...

قاطعه المدير ، مشيرًا إلى مقعد أمامه :

ـ اجلس يا (ن ـ 1) .. اجلس .

جلس (أدهم) أمامه صامتًا ، فتراجع المدير فى مقعده ، وبدا وكأنه يؤجل الحديث دون مبرر ، قبل أن يقول :

ـ الزملاء تقدموا بشكوى خاصة بك يا (ن ـ 1) .

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد قرأتها يا سيّدى .

قال المدير :

ـ ولكنك لم تقرأ القرار ، الذى اتخذناه بشأنها .

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ ربما يمكننى أن أتوقعه يا سيّدى .

مطّ المدير شفتيه فى توتر ، ونهض من خلف مكتبه :

- الواقع أن زمـلاءك كانـوا على حق ، مـن النـاحيـة القانونية يا (ن ـ 1) ؛ فقد خالفت أكثر من عشرة قوانين دون مبرر ، فى الأسابيع الأخيرة .

غمغم (أدهم) :

- ولكن الهدف كان يستحق يا سيدى .

أجابه المدير :

- حتى لو اتفقت معك على هذا ، فمـا زال الزملاء غاضبين ، وما زالوا يعترضون على مخالفتك للأوامر ، التى صارت مثالاً سيئًا للجيل الجديد .

شدّ (أدهم) قامته ، وقال :

- أنا مستعد لكل ما تتخذونه فى هذا الشأن يا سيدى .

هزّ المدير رأسه ، وكأنما يدرك تفهُّمه ، وقال :

- وفقًا للنظم المتبعـة ، وللإجـراءات القانونيـة والأمنية هنـا ، ينبغى أن أوقفك عن العمل ، لفترة مؤقتة أو دائمة .

غمغم (أدهم) :

- سيكون هذا عادلاً .

تابع المدير ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

- ولكن هناك جانب آخر للأمور ، فمن غير العدل أن نعاقب رجلاً مثلك ، بنفس القواعد التى نعاقب بها شخصًا عاديًا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- لذا ، فقد كان هناك استثناء .

تطلعَ إليه (أدهم) متسائلاً ، فتابع فى حزم ، وهو يلتفت إليه :

- سيتم إيقافك عن العمل الميدانى يا (ن ـ 1) .

شعر (أدهم) بغصة فى حلقه ، وغمغم :

- فليكن يا سيدى .

أضاف المدير :

- وسيتم نقلك إلى قسم آخر .

التقط نفسًا عميقًا ، دون أن يجيب ؛ فتابع المدير فى حزم :

- لن تعمل بعد اليوم فى قسم العمليات الخاصة أو الخارجية ، ستتولى قسم التدريب والإعداد .

غمغم (أدهم) :

- ولكن هذا يتطلب ضابطًا أصغر سنًا يا سيدى .

أجابه المدير :

ـ بل أكثر خبرة .

ثم مال نحوه ، مضيفاً :

ـ اعتبرها خدمة خاصة أقدمها لـك ، وخدمـة خاصـة ، تقدمهـا أنت لجيل من ضباط المخابرات ، جيل يتدرّب على يد رجل فريـد فـى مضماره .. جيل يستحق كل واحد منه ، فى المستقبل ، أن يحمـل نفس اللقب ، الذى تحمله أنت الآن .

وحملت شفتاه ابتسامة ، وهو يضيف :

ـ لقب (رجل المستحيل) .

وكانت بداية ...

جديدة ..

[تمت بحمد الله]

★ ★ ★



رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية
للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

المواجهة

- (أدهم) ورفاقه داخل مزرعة زعيم السود ، في قلب (تكساس) الأمريكية ..
- وجيش من رجال المخابرات الأمريكية يهاجمه ، ويسعى للقضاء عليه ..
- معركة رهيبة ، يقاتل فيها رجل المستحيل دولة بأكملها ، فلمن يكون النصر ، ومن يربح (المواجهة) ؟

* اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (رجل المستحيل) في معركته الأخيرة

156





المؤسسة
العربية الحديثة

الثمن في مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم